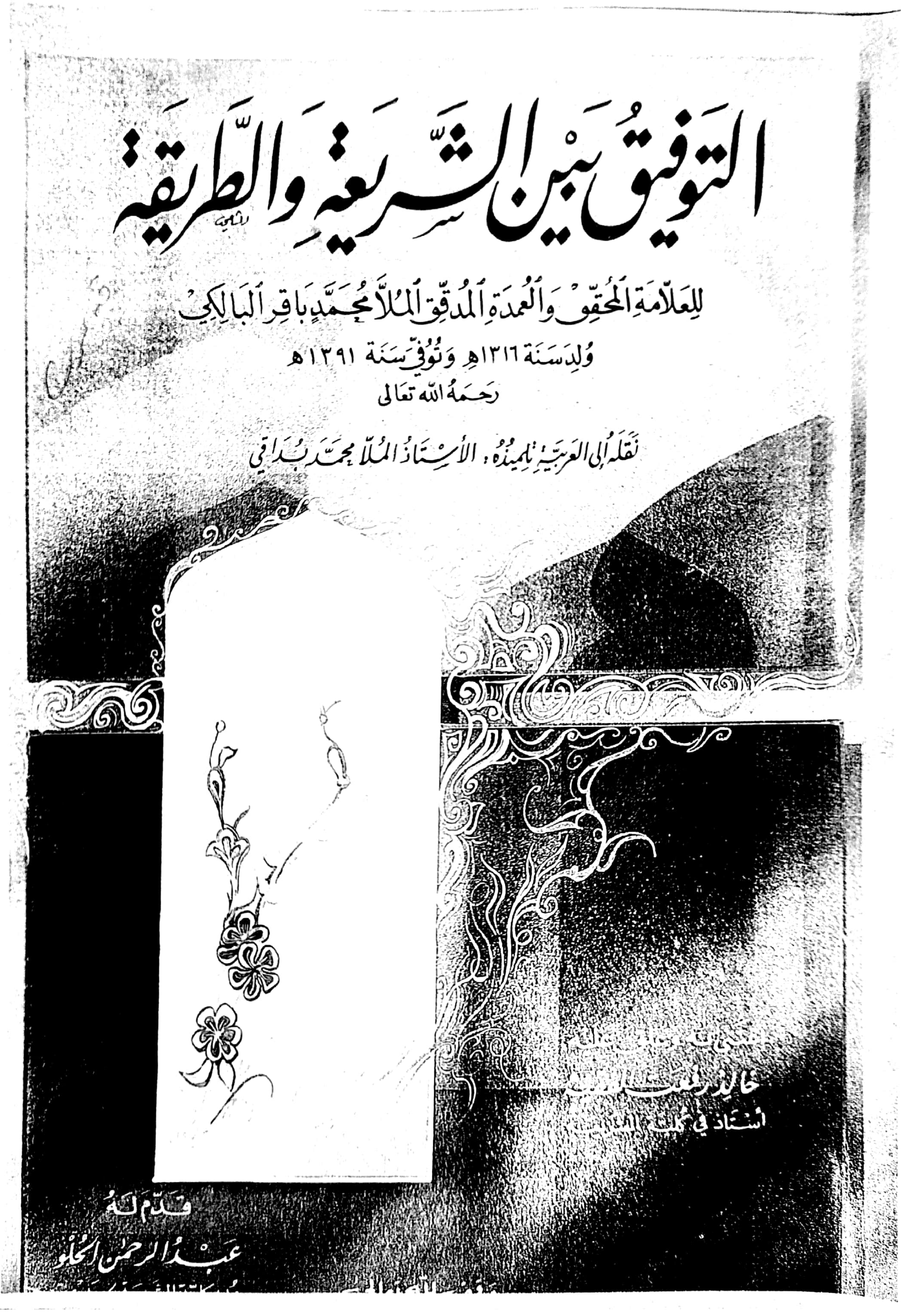


التوفيق بين الشريعة والطريقة

للعلامة المحقق والعمدة المدقق الملا محمد باقر البالكي

ولد سنة ١٣١٦هـ وتوفي سنة ١٣٩١هـ

رحمه الله تعالى

نقله إلى العربية تلميذه: الأستاذ الملا محمد بداقي

أستاذ في

قدم له

عبد الرحمن الحلو

الإهداء

إلى روح العارف الأوحد ، والقطب الأرشد ،
درة سلك الأولياء ، وياقوتة نظام الأصفياء ،
الإمام الربّاني ، والغوث الصّمداني
سيّدي ومولاي حضرة الشيخ محمّد عثمان سراج الدّين الثاني
سليل حضرة المرشد الكامل سيّدي علاء الدّين
النقشبندي ، الذي وافاه الأجل إلى الرفيق الأعلى
فجر يوم الخميس الواقع في ٢١ من شهر رمضان ١٤١٧هـ
الموافق له ٣٠ كانون الثاني ١٩٩٧م قدّس الله سرّه
وأدام ظلّه العالي علينا .

محبّكم
خالد

نُبْذة عن حياة المؤلف (رحمه الله)

هو الأستاذ محمّد باقر ابن الشيخ حسين، من نسب خان أحمد الأردلان، ولد يوم الاثنين ٦ شوّال سنة ١٣١٦ هجريّة في قرية نزار، وأخذ الإجازة للفتوى والتدريس من الملاّ عبدالله الدّشيّ والملاّ محمّد مولانا حفيد النّودشي، وكان عمره آنذاك (٢١) عامًا، وقد أجاز (٢٩٠) من طلبة العلم للفتوى والتدريس، وصنّف (٣٠٠) مُصنّف.

وكان أستاذه في الطريقة حضرة الغوث الشيخ محمّد علاء الدّين قدس سرّه، وبعد وفاته تمسّك بحضرة الشيخ محمّد عثمان سراج الدين الثاني قدس سرّه.

توفي الأستاذ في (١٩) رجب سنة ١٣٩١ هـ

رحمه الله تعالى آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

التقدمة

بقلم عبد الرحمن الحلو

إنّ أَوْلَى ما عَقَد عليه الجَنان، ونطَقت به ألسنةُ الفصاحةِ والبيان، وخطَّت به أقلامُ البَنان، حمدُ الفتّاحِ العليمِ الكريمِ المنَّان.

فالحمدُ للّهِ خلَق الخلقَ بقدرتهِ، ودلَّهم على معرفتهِ بآثار صنعتهِ، وشواهدِ ربوبيّتهِ، وخصَّ منهم صفوةً من الصفوةِ وخِيَرةً من الخِيَرة، بما شاءَ من مواهبِ المِنَنِ والأخلاقِ، ولطائفِ الإشاراتِ والأذواقِ، وقَسَم لهم من العلمِ به والفَهْمِ عنه ما هيَّأهم لإرشادِ الخلقِ، وبَوَّأهم لِلدَّلالةِ على الحقّ، فقلوبُهم في روضاتِ جنّاتِ معرفتهِ يُحْبَرون، وأرواحُهم في رياض ملكوته يَتَنَزَّهون، وأسرارُهم في بحارِ جبروتهِ يَسْبَحُون..! فسبحانَ من ٱصطفاهُم لحضرتهِ وٱختَّصهم بمحبّتهِ.

والصلاةُ والسلامُ الأتمّانِ الأكملانِ على المقدَّمِ المعظَّمِ، السيدِ السنَدِ المكرَّمِ، نبيِّنا محمدِ بنِ عبدِ اللّهِ، شمسِ شموسِ الأولياءِ، وقمرِ أقمار الأصفياءِ، وعلى آلِهِ السادةِ الأخِلاّءِ، وأصحابِهِ البَرَرةِ الأوفياءِ، ما طلعَ نجمٌ بضياءٍ، وأنارَ كوكبٌ بلألاءٍ.

وبعدُ: فإنَّ علمَ التصوفِ من أجلِّ العلومِ قَدْراً، وأعظمِها محلاًّ وفخراً، وأرفعِها عندَ المليكِ ذِكْراً، كيف لا؟! وهو لُبُّ لُبَابِ الشريعةِ المطهَّرةِ، وعَصَبُ مِخَخةِ الطريقةِ الفاخرةِ، به تتحقّقُ سعادةُ الخليقةِ، ومنه تُشْرِقُ أنوارُ الحقِّ والحقيقةِ، ومن لطيفِ ما أَنشَدُوا للشِّبْلِيِّ ـ رحمه اللهُ تعالى ـ :

عِلْمُ التَّصَوُّفِ عِلْمٌ لاَ نَفَادَ لَهُ ... عِلْمٌ سَنِيٌّ سَمَاوِيٌّ رَبُوبِيّ

فيـهِ الفـوائـدُ لـلأرْبَـابِ يَعْـرِفُـها أَهْلُ الجَزَالةِ والصُّنْعِ الخَصُوصِيْ

والصوفيةُ: هم العلماءُ باللَّهِ تعالى وبأحكامه، العاملونَ بما علّمهم اللَّهُ تعالى، المتحقّقونَ بما ٱستعملهم اللَّهُ تعالى، الواجدونَ بما تحقّقوا، الفانُون بما وَجَدوا، على تفاوتٍ بينهم في المعاني والأحوالِ، كتفاوتهم في المعارفِ والأعمالِ:

لِـيْ سَـادةٌ مِـنْ عِـزِّهِـمْ أَقْـدامُهـم فَـوْقَ الجِبَـاهْ
إنْ لَـمْ أَكُـنْ مِنْهُـمْ فَلِـيْ فِـيْ حُبِّهِـمْ عِـزٌّ وَجَـاهْ

والصـوفـيُّ: هـو الـذي ٱجتمـعَ فيـه كـلُّ المَلَكـاتِ الشَّـريفـةِ، وجميـعُ العَزَمَاتِ المُنِيْفَةِ، قد دَخَل في كلِّ خُلُقٍ سَنِيٍّ، وخَرَجَ عن كلِّ خُلُقٍ دَنِيٍّ، كائنٌ بائِنٌ، لا يَمْلِكُ شيئاً ولا يَمْلِكُه شيءٌ، تَمَسَّك بالفَقْرِ والافتقارِ، وتحقَّقَ بالبَذْلِ والإيثارِ، وتَرَكَ التدبيرَ والاختيارَ، قاطعاً للعلائقِ. آخذاً بالحقائقِ. . آيساً مما في أيدي الخلائقِ:

اللَّهَ قُلْ وَذَرِ الوجودَ ومَا حَوَىٰ إنْ كُنْـتَ مُـرْتَـاداً بلـوغَ كَمَـالِ
فـالكـلُّ دونَ اللَّـهِ إنْ حقَّقْتَـهُ عَـدَمٌ على التفصيـلِ والإِجمـالِ
وٱعلـمْ بـأنَّـك والعـوالِـمَ كلَّهـا لَوْلاَهُ في مَحْوٍ وفي ٱضْمِحْلالِ
مَـنْ لاَ وجـودَ لـذاتِـهِ مِـنْ ذاتِـهِ فـوجـودُه لَـوْلاَهُ عيـنُ مُحَـالِ
فالعارفونَ فَنَوْا بأَنْ لَمْ يَشْهَدُوا شيئـاً سـوى المُتكَبِّـرِ المُتَعَـالِ
ورأَوْا سواه على الحقيقةِ هالكاً في الحالِ والماضي والاستقبَالِ

هذا، وقد دَرَجَ العلماءُ الصَّالحونَ على التصنيفِ في علمِ التصوّفِ وأحوالِ الصوفيةِ قديماً وحديثاً، فأجملوا وبيَّنُوا، وأَوجَزوا وأَطْنَبُوا، في شرحِ مَطَاوِي هذا الفنِّ وإظهارِ مقاصِدِهِ وفوائدِهِ، وإبرازِ دقائقِهِ ورقائقِهِ، فألَّف في ذلك الحارثُ المُحَاسِبيُّ، وأبو عبدِ اللَّهِ التِّرْمِذِيُّ ـ المعروفُ بالحكيمِ ـ ، وأبو بكرِ الكَلاَبَاذِيُّ الحنفيُّ، وأبو طالبِ المكيُّ، وحجةُ الإِسلامِ الغزَّاليُّ،

والغَوْثُ الجِيْلاَنيُّ، ومحمدٌ المُنَوَّرُ بنُ أبي الخيرِ، وفريدُ الدِّينِ العطَّارُ، وسلطانُ المحبِّينَ عمرُ بنُ الفارضِ، والشيخُ الأكبرُ محيي الدينِ بنُ عربي، وتَرْجُمانُ الصوفيةِ ٱبنُ عطاءِ اللَّهِ السَّكَنْدَرِيُّ، وعبدُ الرحمٰنِ الجاميُّ، وشيخُ الإسلام زكريا الأنصاريُّ، والعارفُ عبدُ الوهَّابِ الشعرانيُّ، والإمام الربانيُّ أحمدُ الفاروقيُّ السهرندي الحنفيُّ النقشبنديُّ، وسيدي عبدُ الغنيِّ النابلسيُّ، . . إلى آخرين يَطُولُ ذِكْرُهم ويَضِيقُ حَصْرُهم.

في حين أنني لم أَقْصِدِ الاستقصاءَ ولم أَرُمِ الاستقراءَ، وإنّما قُصَارَى ما أَبتغيهِ التوصلُ إلى مؤلِّف الكتابِ الحفيلِ الجليلِ الذي نقدِّم له، صاحبِ الفضيلةِ والسماحةِ سيدي العلاّمةِ الأفيقِ المبرِّزِ الحقيقِ الأُستاذ مُلاّ محمد باقر - رحمه اللَّهُ تعالى رحمةً واسعةً - وما ٱشتملَ عليه كتابُه.

أمّا ٱلمؤلِّفُ: فهو أَحَدُ أَعيانِ العصرِ فقهاً وكلاماً ونظراً وٱستدلالاً وتصوّفاً وسلوكاً عالياً، ما أَخْلَقَهُ بشافعيِّ زمانهِ، وغزّاليِّ وقتهِ وأوانهِ، يَعْرِفُ هذا طلاّبُه وعارفُوه، كما يَعْرِفُه من جَمَعَهُ اللَّهُ تعالى بواحدٍ من طلاّبهِ هؤلاءِ، وتلاميذهِ الجلّةِ الفضلاءِ، ولقد حباني اللَّهُ تعالى بالاجتماعِ إلى جنابِ تلميذهِ الألمعيِّ اليلمعيِّ سيدي ملاّ محمد بُدَاقي - أمتع الله تعالى به - وحَسْبُكَ أنْ تعلم أنّ التلميذَ صفحةُ أستاذهِ.

وأمّا المؤلَّفُ: فقد حَوَى ما رقَّ وراقَ، وحلّى مشاربَ النفسِ بأعذبِ مذاقٍ، فهو يُشيرُ إلى المعارفِ بألطفِ إشارةٍ، ويُلْمِعُ إلى المعنى بأرشقِ عبارةٍ، مع سلامتهِ من التكلّفِ، وخلوِّهِ من الشططِ والتعسّفِ:

كلامٌ يفوقُ الدُّرَ نَثْرُ نِظَامِهِ بِهِ تَسْكَرُ الأَرواحُ من خَمْرَةِ المَعْنَى

كتابٌ هو تبصرةٌ للعارفينَ ومنهاجٌ للسالكينَ، يلتذُّ بتلاوتهِ كلُّ قارىءٍ لَهُ، ويَنْتَعِشُ بمطالعتهِ كلُّ مسترشدٍ بهِ، وإنني على غير ريبٍ في أنّك ستراهُ فَوْقَ الوصفِ. . بما أُلْهِمَهُ ذلك العارفُ، الغارفُ من قاموسِ عوارفِ المعارفِ.

فاْسمعْ بأُذُنِ قلبِكَ ما اْنطوَى عليه من التحقيقِ في رَاوُوقِهِ الصافي، ومَا حَوَاه من فنونِ أحكامِ الطريقِ في رُواقِهِ المُشْرقِ الوافي.

وأنا المقرُّ بأنّي لستُ مِنْ فرسانِ هذا المَيْدَانِ، ولا مِنْ حَمائمِ هذه الأفنانِ، ولكنّيْ أتمَثّلُ قولَ القائلِ:

فَقَدْ تَسْجَعُ الوَرْقَاءُ وهي حَمَامَةٌ   وقَدْ تَنْطِقُ الأوتادُ وهي جَمَادُ

وصلّى اللّهُ تعالى وسلّم على نبيِّنا محمدٍ سيّدِ الكونين وإمامِ الثّقلين وقُرَّةِ كل عين، وعلى آلِهِ وصَحْبِه أجمعين، والحمدُ للّهِ ربِّ العالمين.

٢٨ من محرّم سنة ١٤١٨هـ
محروسة بيروت ٤ من حزيران سنة ١٩٩٧م

وكتبه
عبد الرحمٰن الحُلْو

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذي تقدست ذاته عن الشبيه والنظير، المتجلي على أهل البصائر بصفة السميع البصير، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمة للعالمين، سيدِنا محمدٍ سيدِ الأولين والآخرين، وعلى آله الطاهرين وأصحابه الطيبين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد قال الله تعالى في كتاب العزيز: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقال عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] فرفع المولى سبحانه في الآية الأولى درجة الذين يعلمون فوق الذين لا يعلمون، وأثبت في الثانية كلَّ عمل يُتقرب به إليه ويُبتغى به رضاه.

ولما كان علمُ معرفة الله تعالى أشرفَ العلوم وأوجبَها، وكانت ثمارُ شجرتِهِ ذاتِ الأصلِ الثابتِ، المغروسة في أرض النية الخالصة، والمرويةِ بالألطاف والعطاء والفتح الربانيِّ، باقيةً في الدنيا وثابتةً في الآخرة؛ قام العقلاءُ متوجهين بشراشرهم، بالتشمير عن ساعد الجُهد والجِدّ، وخاضوا بستان المعارف الإلهية، بعد تزكية نفوسهم وصقل قلوبهم وتنوير عقولهم، بُغْيَةَ الفوز بالدرر الجلالية الخالدة التي تنير دربهم في دار الفناء، وتكون ذخراً لهم في دار البقاء!!.

ومن زمرة هؤلاءِ المصطَفَيْنَ، صاحبُ كتاب «الألطاف الإلهية شرح الدُّرر الجَلالِيَّة» فضيلةُ العالمِ العلاّمةِ والبحرِ الفهّامةِ، المدرسُ الفاضلُ الأُستاذُ مُلاّ محمد باقر ـــ رحمه الله تعالى ـــ.

لمع نجمُهُ في سماء العلم والمعرفة، وسطع نورُهُ في مؤلفاته وصدور

طلبته، فكان كالماء للظمآن، وكالنور في الليلة الظلماء؛ ويدرك ذلك كلٌّ من يَسَّر الله له الاجتماعَ بطلبته الكرام، حيث يبصر من علومهم وصفاتهم بعضاً من علوم أُستاذهم وصفاته الفاضلة. وقد أكرمني الله تعالى بالاجتماع ببعضٍ منهم، أذكر مِنْ بينِهم الأفاضل: مُلاّ عبد الله صالح فَنَائي (الكاتب) ـ مُلاّ محمد بُدَاقي ـ مُلاّ محمد أمين كانِيسَانَان ـ مُلاّ سيد بهاء الدين آرَنَاني ـ مُلاّ عبد الكريم سُورَهْ زَهْ (سُورَزَ) ـ مُلاّ شفيع أحمدي ـ مُلاّ رسول مقدوري ـ مُلاّ محمد عَزِيزِي ــ مُلاّ محمد عارف (نجل المؤلف) ــ مُلاّ محمد جريحي، إلى آخرين يضيق المقام بذكرهم.

وهذا الكنز الذي بين أيدينا، كتاب «التوفيق بين الشريعة والطريقة»، هو إحدى ثمار جُهد هذا العَلَم الملقّب بــ: «شافعي زمانه» وعطاءاته المبرورةِ، وقد ألّفه رحمه الله لدفع الشبه الواردة على الطريقة وكسبها وصفة رجالها وطالبيها، محاولاً بذلك رفع اللثام عن حقائق صارت في طي الكتمان، ليخرجها في حُلّة ناصعة بعد طول هجران. . .

ومؤلَّفه هذا قد زاد على مِئَة وعشرين صحيفةٍ، وفيه مباحث نفيسة أثبتُّها في الفِهْرِس، وقد يسرّ الله لي قراءةَ هذه الدرّة على جناب أُستاذي الفاضل حضرة المُلاَّ محمد بُدَاقي ـ أطال الله عمره ونفع به ـ المدرسِ في خانقاه بيرانشهر في إيران، وقمتُ بخدمته في صياغة بعض العبارات المشكلة بأسلوب سهل، ووضع بعض الشروحات في الحاشية دون أَنْ أُخِلَّ بمقصود صاحب الكتاب.

هذا وأرجو من المولى عز وجلّ قبولَ سعيي وسعي من ساعدني في طبع هذا الكتاب ونشره، وأسأله سبحانه أن يخلق التأثير والمنفعة في قلوب القارئين الطالبين المحبين للحقيقة، إنه على ما يشاء قدير، ولا حولَ ولا قوةَ إلاّ بالله العليّ العظيم.

وكتبه

خالد رفعت الفقيه

الجمعة ٢٥ جمادى الأولى ١٤١٦ هــ

الموافق لــ ٢٠/١٠/١٩٩٥م

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على خير الورى محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فالمعلوم لكل أحدٍ أنَّ دين الإسلام متعلق بالأعمال الظاهرة والباطنة الاعتقادية للبشر، ويقال له الشريعة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ [الجاثية: ١٨].

والشريعة أربعة أقسام:

القسم الأَول: علم الكلام: وهو علم يبحث عن العقائد الدينية، ويقال له: أُصول الدِّين، والأَحكام الأَصلية والاعتقادية، سواءٌ كان عقليّاً يعرفه البشر بواسطة الدلائل العقلية مثل: وجودِ ذات الله وصفاته، وإمكانِ الرسل وحسنِ إرسالهم، وحسنِ وقوع إنزال الكتب السماوية، وحسنِ وقوع الحشر الجُسْمانيِّ، وحسنِ وقوع العذاب، وحسن وقوع الجنة والنار.. وأمثال ما ذُكر.

أو سمعيّاً، أي: لا يعرفه العقل تفصيلاً بدون إعلام الله ورسله، مثل: وقوعِ بعث الرسل، ووقوعِ إنزال الكتب، ووقوعِ الجنة والنار، ومقدَّماتِ الموت ومؤخَّراتِهِ، فثبوت كلِّ ذلك في الشريعة.

وعلم الكلام أربعة أنواع:

النوع الأول: فرض عين، أي يجب على كل أحدٍ أن يعلمه، ولو لم يعرفه

لم يستحقَّ صفة المؤمن، كما لو قيل له ما الإسْلام وما المسلمون؟ فقال: لا أَعرفهما، كان ذلك كفراً عند أهل اليقين؛ فيجب على الأبوين أن يعلِّما أولادهما في سنِّ العاشرة هذا النوع من الكلام، وقد بيّن علماؤنا ذلك في الرسائل العربية والكردية والفارسية مثل كتاب «روله بزانه» ــ يعني: اعلم يا ولدي ــ وعقيدة الشيخ سميع، وكتاب «فرض وسنت»، وكتاب «العقائد النسفية» وغيرها. . . وأفضل ما أُلّف فيه كتاب «قواعد العقائد» للغزَّالي، وقد ذكره في كتابه «إحياء علوم الدِّين»، وكتب بعضه باللغة الفارسية في كتاب «كيمياء السعادة».

النوع الثاني: فرض كفاية في كلِّ قرية وبلدة، أي: يلزم أن يوجد في كلِّ قرية وبلدِةٍ واحدٌ يعرف الأدلة السمعية والعقلية من القسمِ الأوّلِ الفرضِ العينِ، حتى إذا ما وُجِدَ شبهةٌ لواحدٍ من سكانهما؛ يُستطاع رفعه بواسطة ذلك العالم بدون الاحتياج للسفر إلى موضعٍ آخرَ.

النوع الثالث: فرض كفاية في مسافة الغُدُوِّ، يعني: يجب أن يوجد في مسافة لو سافر بُكرةً يرجع قبل دخول الليل إلى منزله، مع قضاء حاجته عند عالم يستطيع إثباتَ جميعِ المعتقدات الدينية ودفعَ شبه فرق المبتدعة.

النوع الرابع: فرض كفاية في مسافة القصر، يعني: يجب أن يوجد في مسافة القصر ــ وهي ستةَ عشرَ فرسخاً ــ عالمٌ متبحّرٌ يستطيع دفعَ أدلةِ وشبهِ الكفرة والفلاسفة والمبتدعة، وإثباتَ جميع العقائد الدينية، لكنَّ تلك المرتبةَ متعسرةٌ ونادرةٌ ويمكن أن يكون هذا النوعُ متعذراً.

ولما كان الانحراف في فنِّ الكلام يجر الإنْسان ــ أعاذنا الله ــ إلى الكفر والابتداع، شرط له ثلاثةُ شروط مهمّة:

أولها: قراءتُهُ عند شخصٍ عالمٍ ماهرٍ عاقلٍ صالحٍ صحيحِ الاعتقاد؛ لأنّ الجاهل لا يعرفه، وغيرَ العاقل لا يعرف طريق التعليم، لأنّ لكلِّ متعلمٍ وطالبٍ مشرباً وطريقاً غيرَ مشربِ وطريقِ باقي رُفَقَائه، فيلزمَ أن يكلِّمَهم ويباحثهم على

حَسَبِ استعداداتهم، فقد قيل: «كلم الناس على قدر عقولهم»، ومعرفة ذلك بالعقل الوهبيِّ، وغيرُ الصالح والمنحرفُ يسعيان في الإضلال وإفساد العقيدة.

وثانيها: استعداد المتعلم لإدراك المسائل الكلامية، فلو أحسَّ المتعلم من نفسه أنه لو اشتغل به يوجد له الرَّيْبُ والشكُّ وتزول عنه العقيدةُ الصحيحةُ المجملةُ الثابتةُ في الصغر، يحرم عليه الاشتغالُ بعلم الكلام، كما لو علم المعلِّم أنّ المتعلم ليس له استعدادُ تعلُّمِ تلك المسألةِ حَرُمَ عليه تدريسُهُ وتعليمُهُ إياها، ويفهِّمه باللِّينِ وحلوِ الكلام أن لا يطالعَ الكتب الكلامية.

وثالثها: رعاية الترتيب السابق، يعني: يتعلم أوّلاً الفروضَ العينيةَ ويمارسُهَا حتى تكون له مَلَكَةٌ بحيث يمتنع زوالُهَا، ثم يشتغلُ بتعلُّم المسائل الثانيةِ الكفائيةِ في كلّ قريةٍ كالأَوّلِ، ثم الثالث كذلك، ثم الرابع. والمستعدّ لكلّ الأنواعِ يجوز له مطالعةُ الكتبِ المصنَّفة فيه.

القسم الثاني: أي من الشريعة المطهَّرة: هو علمُ الفِقْهِ، وهو يبحث عن الأعمال الظاهرة للبشر، ويقال له الأحكام الفرعيةُ والعمليةُ. ومسائله من حيث الذاتُ أربعة أنواع:

الأول: العبادات؛ مثل: الصَّلاة والصوم والحجّ والزكاة والجهاد، وشروطها وأركانها.

والثاني: المعاملات؛ مثل: البيع والإجارة والسَّلَم والقِرَاض والرَّهن والنَّذر والهِبَة وغيرها.

والثالث: النكاح وتوابعه؛ مثل: الصَّدَاق والخُلْع والعِدّة والرَّجْعة وغيرها.

والرابع: الجنايات؛ مثل: القتل والسرقة وغيرهما.

ومن حيث التعلّقُ أربعة أنواع أيضاً:

الأول: فرض عين على كلّ البشر، فيجب على الأهل أن يعلِّموه أولادهم

عند بلوغهم عشر سنين، وهو الصومُ والصلاةُ على كلّ بالغ عاقلٍ مستطيعٍ، والزكاةُ على صاحب المال، والحجُّ على المستطيع، والجهادُ في وقته، ومثلُ قانونِ البيع والشراءِ على التاجر وباقي الصنائعِ والأعمال على المشتغل بها.

والثاني: فرض كفاية في كلِّ قرية وبلدة، وهو علمُ فروض العين، وعلم شرائط وأركان الأذَانِ وصلاةِ الجماعة وصلاةِ المَيْتِ والعيدينِ، وكيفية أمور عامّة المسلمين مثل التلقين وإتقان الصناعات والعلوم المفيدة للإنسان.

الثالث: فرض كفاية في كلِّ مسافة غُدُوّ، وهو علم أُمورِ الطلاق والنكاح والعِدَّة والظِّهار والإيلاء والجِرَاح والرَّجْعة وأمثالِهَا من الأُمور التي يكون فيها الناسُ مقلّدين غالباً.

الرابع: فرض كفاية في مسافة القصر، وهو علمُ جميعِ المسائلِ الفقهية؛ حتى يرجع إليه في حلِّ مشكلات العلماءِ والعوامّ، سواءٌ كان مجتهداً أم مقلِّداً، فمن أَوَّلِ الإسلام إلى قريب من السنة المائتين للهجرة، والعلماءُ يعتقدون أنّ كسب رتبة الاجتهاد فرضُ كفايةٍ، ولكنْ لما فشا الفسقُ وشاعتْ ظُلمةُ عكسياتِ الكفرِ والبِدْعة وقسوةِ القلوب ولم يوجَدْ شخصٌ تتحقق فيه شروطُ الاجتهادِ قال العلماء: الناسُ لا يأثمون بتركِ طلبِ الاجتهاد، لكنْ يوجدُ رتبةُ الاجتهاد في الفتوى.

وفي اعتقادي أنّ أيَّ شخص أدرك في نفسه شرائطَ كسب الاجتهاد وترك الاشتغالَ به يأثم!.

القسم الثالث: أي من علم الشريعة، هو: علم أُصول الفِقْه، وهو علمٌ يُبْحَثُ فيه عن الأحوال العامّةِ للكتاب والسنة والإجْماع والقياس والاستدلال، وعن المرجّحات وصفات المجتهد، وهذا العلم فرض كفاية.

القسم الرابع: أي من علم الشريعة، هو: الطريقةُ، وهو علمٌ يُبْحَثُ فيه عن كيفيّةِ تزكيةِ النفس وتصفيةِ القلب وتبديلِ الأخلاق السيّئة بالحسنة، فيكون سبباً للقرب والرِّضاء والوصول إليه تعالى.

فعُلِمَ بذلك أنّ الشريعةَ أربعةُ أقسام، وأعظم أقسامها: الطريقةُ ثم الكلامُ ثم أُصولُ الفِقْهِ فالفِقْهُ.

وأما القرآن والحديث: فهما دالاَّنِ ومبيِّنَانِ للشريعة، وأمّا علمُ التفسير، وعلمُ مصطلح الحديث، وعلمُ أحوال الرُّواة، وعلومُ العربية، مثل: النَّحْوِ والصَّرْفِ والبلاغةِ وغيرِها، فهي علومٌ شرعيةٌ ومقدِّمَاتٌ للمعرفةِ وفروضُ كفايةٍ.

فالطريقة إذن قِسْمٌ مُهِمٌّ من الشريعة، ويلزم أن لا تخالفَ ظاهرَ الشريعةِ والكلامِ؛ وإلاَّ كانت ضلالاً وزندقةً وإلحاداً وعندها لا تكون طريقة.

ويلزم على العلماء الظاهرين والأَوْلياء أن يتفقوا ويكونوا يداً واحدة في تقوية الدين وتشييد بنيانه، ويحفظوه بتمام قواهم ويتوسعوا فيه ويشيعوه. ولكنْ ـ ومعَ الأَسف ـ غالبُ العلماء باتباعهم النفسَ الأمّارةَ والحسدَ وحبَّ الرياسةِ، وعدمِ دَرْكِ حقيقة الطريقة والشريعة، وعدمِ العلم بكيفية الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ سلكوا طريق الإفراط والتفريط، وشيَّدوا بنيان الاختلاف بين العلماءِ الظاهرين والذين يدّعون التصوف؛ بحيث صار اختلافهم كاختلاف الكافرِ والمؤمنِ والسنيِّ والمبتدِع، ووقعوا في أعراضهم ونفوسهم حتى قَرُبَ أن يضحملَّ الدِّينُ بسبب اختلافهم!.

لذا: أنا الحقير المعدودُ ظاهراً من العلماء والمخلص بتمام القوى لأهل الطريق، ألّفتُ هذا الكتابَ على طريق النصحِ والإِخْلاص الإِسْلاميِّ وبدون تعصّبٍ ومَيْلٍ لأحدِ الطرفين، وأتمنى من الله أنْ يوفّق العلماءَ والمشتغلين بالتصوف لمطالعتِهِ ودقةِ النظر فيه حتى يفهمَ كلٌّ حقيقةَ الأَمْرِ ومرادَ الآخرِ، ويرتفع الخلافُ من بينهم فيتحدوا ويشتغلوا بترميم الدِّين المبين.

ويشتمل هذا الكتاب على أربعة مباحث:

المبحث الأول: في بيانِ حقيقة البشر.

المبحث الثاني: في بيان إجمال حقيقة الطريقة وشروطها.

المبحث الثالث: في بيان حقيقة المرشد وأحواله وشروطه.

المبحث الرابع: في بيان كيفية معاملة المرشدين مع العالِمين وبالعكس.

المبحثُ الأَوَّلُ: حقيقةُ البَشَرِ

الموجود والوجود قسمان:

قديم، أي: لا يسبق بالعدم ولا يعدم، وهو الله وصفاته.

حادث، أي: كان معدوماً والله أوجده، وهذا الحادث يقال له عالم الخلق[1]، أي المُخْرَجُ من العدم، وهو قسمان:

الأَول: عالم الأمر، وهو عالمٌ ليس بقابلٍ للطول والعرض والعمق والمحسوسية في الدنيا، ويقال له عالمُ المجرَّدات وعالمُ الغيب والعالمُ العلويُّ والنورانيُّ[2].

الثاني: عالم الخلق بالمعنى الأخصِّ، وهو عالمٌ قابلٌ للنقص والزيادة والطول والعرض والعمق والإِحْساس بالحواسِّ الظاهرة في الدنيا، ويقال له عالمُ الماديَّات وعالمُ المشاهدة والعالمُ السفليُّ والظلمانيُّ.

فالسماوات والأَرض والحيوان والنَّجم والبشر والجمادات والهواء

---

(١) الخلق في لسان العرب جاء بمعنيين، الأول بمعنى المخلوق أي الموجَد من العدم إلى الوجود، وجميع ما سوى الله تعالى داخل في هذا الخلق. والثاني بمعنى التصوير والتقدير، فيدخل فيه الماديات فقط دون المجردات كما قال تعالى: ﴿**ألا له الخلق والأمر**﴾، فهذه الآية لها معنيان: الأول، التصوير والإيجاد لله تعالى لا لغيره. والثاني، نفس عالم الخلق وعالم الأمر من المملوكية والمخلوقية لله تعالى. وقال جل شأنه أيضاً: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ يعني أوجده بدون تصوير.
قال الإمام الغزّالي في «الإحياء» (٣/٥٥٨): الأجسام ذوات الكمية والمقادير: من عالم الخلق، إذ الخلق عبارة عن التقدير. وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار، فإنه من عالم الأمر.

(٢) ويسمى أيضاً: عالم الملكوت والعالم الروحاني.

وغيرها من كل ما كان قابلاً للإحساس هو من هذا العالم، وكذا الجنةُ والنار والحوروالغِلْمَان ونعيم الجنة.

وأصل ماهية عالم الخلق والظلمانيِّ: البعدُ والاجتنابُ والظلمةُ والقهرُ والعصيان، وأصل ماهية عالم الأَمر: القربُ والمعارفةُ مع الله والعدلُ والعباداتُ والإحاطةُ والمعيةُ مع كل شيءٍ.

هذا: ويلزم معرفةُ أنّ التعلقَ والاتصالَ والقربَ والمعيةَ والإحاطة سبعةُ أقسام:

الأَول: تعلُّق الجسم بالجسم، مثلُ تعلُّقِ اللِّبَاس بالشخص.

الثاني: تعلُّق الجسم بالعَرَض، مثلُ تعلُّقِ ذاتك بلونك.

الثالث: تعلُّق العَرَض بالجسم، مثلُ تعلُّقِ لونك بذاتك.

الرابع: تعلُّق العَرَض بالعَرَض، مثلُ تعلُّقِ حلاوة العسل بلونه.

وهذه الأقسام الأربعة بديهية ومحسوسة لكل أحد.

الخامس: تعلُّق المجرَّد بالماديِّ، مثلُ تعلُّق روحك ببدنك.

السادس: تعلُّق المجرَّد بالمجرَّد، مثلُ تعلُّقِ روح المعلِّم بروح المتعلِّم.

السابع: تعلُّق المجرَّد بجميع المجرَّدات والماديَّات، وهذا القسم الأَخير مختصٌ ومنحصرٌ في ذاتِ الله المقدَّس؛ لأنَّ الله تعالى في آنٍ واحدٍ محيطٌ وقريبٌ ومصاحبٌ ومتعلِّقٌ بجميع العالمِ المجرَّد والماديِّ، ولتوضيح هذا التعلُّقِ السابع جاءت الآياتُ المتشابهاتُ مثلُ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ۝١٢٦﴾ [النساء: ١٢٦].

والعلم التفصيليُّ بهذه الأَقسامِ الثلاثةِ الأَخيرةِ صعبٌ جداً، فغيرُ الأَنبياء ـ

عليهم الصلاة والسلام ــ والأولياء ــ قدّس الله أسرارهم ــ لا يعلمون حقيقتها، فعلى كلِّ مكلَّف أن يصدق بها إجمالاً ولا يتأمل في كيفيتها؛ لأنه مع قطع النظر عن أنه لا يعرفها، يحتمل أنْ يُفْسِدَ عقيدته، لأنه قيل: «المرءُ عدوٌ لما جَهِل»، وأهل العِرْفان يعرفون بطريق المكاشفة خقيقة معيَّةِ روحه بِجسمِهِ وأجسامِ غيره وأرواحِهِم، ويعرفون بواسطة عِرْفانهم أنّ مقارنةَ الله وتعلّقاتهِ بالأشياءِ مثلُ مقارنةِ روح العارف ببدن نفسه وأبدان وأرواح الآخرين، لكنْ لا يصل إلى معرفة تفصيل تلك المعية إلاّ اللَّهُ جلّ شأنهُ؛ فنشأ مما ذكرنا قولُ معاذِ الرازيِّ الصوفيِّ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ» يعني: من عرف بطريق المكاشفة روحَ نفسه وتعلّقَه بالأشياء، يعرف ذلك الشخصُ أنَّ تعلّق ذاتِهِ تعالى بالأزمان والأمكنة وعالَمِ الماديَّاتِ والمجرَّداتِ أيَّ تعلّقٍ هو، ويكون عارفاً بذاتِهِ تعالى وتعلّقاتِهِ، ويعرفْ كينونةَ اللَّهِ في السماءِ والأرض ما هي، ومعيتَه وقربَه وإحاطَتَه بالأشياء أيَّ نوعٍ هو، وما هو معنى مجيئه، ومَنْ لاَ يَعْرِفُ نَفْسَهُ لاَ يَعْرِفُ اللَّهَ.

فإن قيل: فعلى ما ذُكِرَ لو لم يصلْ شخصٌ إلى هذا المقام لا يعرف ربَّهُ فهو كافرٌ، فيلزم مما ذكرتَ تكفيرُ أغلب الناس!.

فنقول في جوابه: الإيمان خمسة أقسام:

الأول: تقليديٌّ، يعني بمجرد السماع من عدد قليل من الناس: أن الصلاة واجبة، تُصَدِّقُ بوجوبها وَتُذْعِنُ لها.

الثاني: الإيمان العلميُّ اليقينيُّ، وهو أن تُصَدِّق به بواسطة الدليل الواقعيِّ ولكنْ لم تشاهدْهُ، مثلُ أن ترى من بعيد ــ في يوم من الأيام ــ الدخانَ وتعرف أن الدخان أثَرُ النار، فتعلم أن النار موجودة هناك لأنّ الدخان الموجود أثَرُهَا، وكلَّما كان الأثر موجوداً كان المؤثّر موجوداً. وترى النار في الليل وتعرف أن النار مؤثرةٌ في الدخان فتعلم أن الدخان موجود؛ لأنه كلَّما كان المؤثرُ موجوداً كان الأثرُ موجوداً، فلذا قال العلماء: العلم اليقينيُّ يحصل من الاستدلالِ بِالأثَرِ على المؤثّرِ، أو بالعكس، أو بأحد الأثرين على الأثر الآخر، ويقال لهذين

القِسمين: العلم والمعرفة والتصديق.

الثالث: الإيمان العينيُّ اليقينيُّ، يعني أن تُدْرِكَ المعلوم بواحدٍ من الحواسِّ الخمسِ الظاهرةِ، مثلُ مشاهدةِ اللون بالبصر، وسمع الصوت بالسامعة، ومذاقةِ الطَّعْم بالذائقة، وشمِّ الرائحة بالشامَّة، ولمسِ الحرارة باللامسة. أو أن تُدْرِكَ ذلك بالعاقلة، أي عين القلب، مثلُ إدراك المغيَّبات بعين القلب.

الرابع: الإيمان الحقيُّ اليقينيُّ، يعني إدراك الشيءِ بالحواسِّ بحيث يكون ذلك الإدراك بجميع ذرات الوجود الظاهرية والباطنية، مثل إدراك أَلَمِ المرض الساري في جميع البدن، كما أن رائحة ورق الرَّيْحَان في جميع ذرات الورق.

وهٰذان القسمان يقال لهما: الإيمان الشهوديُّ.

الخامس: الإيمان العرفانيُّ، وهو الذي بعد أن كان مشهوداً ومختلطاً مع الذّرَّات صار خليلاً وقريناً.

ومثال الأقسام الخمسة: علمُك بالحُمَّى.

ففي وقتٍ ليس لك حُمَّى وما رأيتَ ذا حُمَّى، لكن سمعتَ أن الحُمَّى موجودةٌ وقَبِلْتَهَا؛ يحصل لك الإيمان التقليديُّ.

وإذا رأيتَ بالبصرِ ذا حُمَّى؛ يحصل لك الإيْمانُ العلميُّ اليقينيُّ.

وإذا حصلت الحُمَّى في بعض أعضائك؛ يحصل لك الإيمان العينيُّ اليقينيُّ.

وإذا حصلت في جميع أعضائك الظاهرية والباطنية، وما خلا عضوٌ من أعضائك إلا وكان مصاباً بها؛ يحصل لك الإيمان الحقيُّ اليقينيُّ.

وبعد بقائك مدةً على هذه الحالة؛ يحصل لك الإيمان العرفانيُّ.

إذا عرفت هذا: فاعلم أنّ الكفر يحصل بفقدان الإيمان العلميِّ اليقينيِّ،

فأيُّ شخصٍ يعرف المسائلَ الدينيةَ بطريق العلم اليقينيِّ، فهو مؤمنٌ وليس بكافرٍ ـ لكن ليس له إيمانٌ شهوديٌّ ـ فيخرجُ جميعُ المسلمين عن رتبةِ الكافرين، ولكنْ ليس لهم فضيلةُ الإيمان الشهوديِّ، وفيما يأتي توضيحٌ إجماليٌّ لتعلق المجرَّد بالأشياء:

فأنا الفقير بيّنتُ في تأليفاتي ـ وقتَ تدريس الكتب بعنوان التمثيل ـ المعيةَ الخامسةَ والسادسةَ حتى يُسْتَفادَ منه مُجْمَلاً المعيةُ السابعةُ وقلت: بديهيٌّ أنّ وظيفةَ لسانِ المعلِّم إجراءُ الألفاظِ على اللسانِ لا إفادةُ المعنى، ووظيفة سامعة المتعلِّم استفادة الألفاظِ وسماعُهَا لا استفادةُ المعنى وإدراكُ هيئاتِ الألفاظ وترتيبها، إذ إنَّ استفادَةَ المعنى وإدراك الهيئاتِ مشروطٌ بمواجهةِ روح المعلِّم مع روحِ المتعلِّم واتصالِهِمَا بالمعيَّن، ولو لم يعرفْ شخصٌ اللسانَ العربيَّ وقال بحضورِ حيوانٍ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، فالشخصُ المتكلِّم تلفَّظ بما ذكر وسَمِعَتْهُ سامعتُهُ وأدرك هيئةَ لفظِهِ المربوطِ بالسمع، وسِمِعَتْهُ أيضاً سامعةُ الحيوان؛ لكنْ يكونُ الروح المجرَّدُ للمتكلِّم لم يتصل بالمعنى ليفهمه؛ والحيوانُ هكذا، بل ليس له استعدادُ إدراك هيئاتِ الألفاظ.

ولو قاله بحضور بشرٍ عاميٍّ؛ فلكون المخاطَبِ مستعداً لإدراك هيئات الألفاظ ومواجهةِ روحِ الأُستاذ مع روحِ المتعلِّم في هيئاتِ الألفاظ؛ يدرك هيئاتِ الألفاظ، ولكنْ لعدم الاتصالِ بالمعنى لم يفهم المعنى.

ولو قاله بحضور عالمٍ فروحُ المتكلِّم في حين إجراءِ اللفظِ بواسطة ذلك الإجْراء يوصلُ اللفظَ والمعنى إلى روحِ السامع.

ولو قاله بحضورِ العالمِ بالمفردات ولكنْ ما سمع قبلُ هيئةَ الآيةِ يصل بواسطةِ سَمْعِ المفرداتِ إلى معنى هيئة الآية.

فعلم مما ذكرنا: أن اتصالَ بدنِ المعلِّم ببدن المتعلِّم من قبيل اتصال

الجسم بالجسم، ووظيفة ذلك الاتصالِ تحصيلُ الآثارِ المحسوسةِ الظاهرةِ، واتصالَ روحِ كلٍّ منهما ببدنه من قبيل اتصالِ المجرَّد بالجسم، واتصالَ روحِ كلٍّ منهما بالآخرِ وبالمعاني والأمورِ غير المحسوسةِ اتصالُ مجرَّد بمجرَّدٍ، ووظيفة هذين الاتصالين الأخيرين: الوصولُ إلى الأشياءِ غيرِ المحسوسةِ؛ إمَّا بالذات، مثلُ الوصول إلى حقيقة الروح، وإمَّا بواسطة المحسوسات، مثلُ الوصول إلى الكليات المستقرأة بوسيلة جزئيات محسوسة.

ومن البديهيِّ أيضاً أنه إذا لم يتصل العالِمُ بالمعلومِ لم يعلمْهُ، وكلٌّ من المعلِّم والمتعلِّم بالنسبة إلى الآية السابقة لم يذهبا إلى الجنة ولا الجنة أتتْ إليهما، فيلزم أنْ يكون الروح في آنٍ واحدٍ مرتبطاً بالجنة وببدن المتعلِّم، فيلزم أن يوجدَ في القائلِ والسامعِ شيءٌ غيرُ جُسْمَانيٍّ لا يتفاوت لديه العلمُ بالأشياءِ القريبةِ والبعيدةِ والغائبةِ والحاضرةِ والمحسوسةِ وغيرِ المحسوسةِ، وفي وقتٍ واحد يتصل به وبباقي المجرَّدات والماديَّات، وتمكُّنُهُ ووصولُه ليس من جنس الأقسام الأربعة المارَّة للوصولِ؛ لأنَّ الجسمَ والعَرَض لو كانا في العُلْوِ لَمْ يكونا في السُّفلِ، ولو شغلا محلاً ففي تلك الحالةِ لا يستطيعان إشغالَ موضعٍ آخرَ!! ونوضح ذلك إجمالاً في مثالٍ آخر، فنقول:

معلومٌ أنّ الكاتبَ حَفِظَ صُوَرَ الحروفِ ونقوشَ خطوطِهَا، ففي أيِّ وقتٍ أراد يستطيع أن يكتبَهَا بدونِ تعمُّقِ فكرٍ، ومعلومٌ أنّ صُوَرَ تلك الحروفِ مستقرةٌ في موضعٍ متعلِّقٍ ببدن الكاتب، وصُوَرُ الحروفِ وذلك الموضعُ ليس الجسمَ ولا العَصَبَ ولا العظمَ ولا الدَّمَ ولا سائرَ الأَعْضَاءِ من الكاتب، حتى يكونَ انتقاشُهُ بها كانْتقاشِ الجدارِ بالصُّوَر، فيلزمُ أن يكون محلُّ استقرارِ تلك الصورِ غيرَ الجسمِ والجُسْمَانيّاتِ، بل من قبيل المجرَّدات غيرِ المحسوسةِ.

فعلم أنّ في بَدَنِ الكاتب شيءٌ روحانيٌّ يكتبُ فيه بالمِدَادِ والقلمِ الرُّوحانيينِ، فيكونُ لوحاً روحانيّاً، وبالكتابة فيه يمتاز العالمُ عن العاميِّ.

ومعلومٌ أن صُوَرَ تلك الحروفِ بعيدةٌ بقرينةِ أنّ الشخصَ يَغْفُلُ عنها في

بعض الأَحيان، ففي حينٍ كانت بعيدةً كانت قريبةً بقرينةٍ أنه كلما أراد أن يكتبها يكتبُهَا ويُحضرها، فعلم أنّ في البشر شيئاً ليس بجسمٍ ولا جُسْمَانيٍّ، ولا يتفاوتُ لديه في الإِدْراك القربُ والبعدُ، وليس في البدنِ والمكانِ وليسا بِخَلِيَّيْنِ عنه، ولا متصِّلٍ بهما، وهو حقيقةُ البَشَر.

فمن أدرك في نفسِهِ هذا الشيءَ وكان مستعداً لإدراكه، يَعْلَمْ أن اللَّهَ ليس بمكانيٍّ ومقارنٌ لجميعِ المكان، وليس بجسمٍ ولا جُسْمَانِيٍّ ومتعلقٌ بهما، وكان له الارتباطُ والقربُ والمعيةُ والإِحاطة مع جميع الأَشياء، ويعرفْ أنَّ الكرام الكاتبين بأيِّ وجهٍ يستطيعون كتابةَ أعمال الناس.

مسألةٌ حقيقةُ خَلْقِ عَالَمِ الْخَلْقِ والأَمْرِ إجمالاً:

لقد بيّنّا حقيقةَ خَلْقِ العالَمِ بالتفصيل التامِّ في بعض الكتب، لكنَّ مطالعتَه غيرُ مفيدةٍ إلاّ لمن أحاط بعلمِ الكلام وفنِّ الحكمة، وبيّنا حقيقةَ خلقِ البَشَرِ بالتفصيل في كتاب «حقيقة البشر» لكنَّ إفادتَه مختصةٌ بالشخص المنتهي، وهنا أبيّنها إجمالاً حتى تكون إفادتُهُ عامةً.

قال الله تعالى في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرف فخلقتُ الخلق لكي أُعرف»[1]، وجاءَ في الحديث النبويّ: «أَوّلُ ما خلق الله نوري»[2] الإضافة هنا بيانيّة أو لاميّة، يعني: خلقني أوّلاً، أو نوري أوّلاً ثم

---

(١) لفظ الحديث: «كنت كنزاً لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً فعرّفتهم بي فعرفوني» قال ابن تيمية: ليس من كلام النبي ﷺ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وتبعه الزركشي والحافظ ابن حجر في اللآليء والسيوطي وغيرهم. وقال القاري: لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ أي ليعرفوني كما فسره ابن عباس، رضي الله عنهما. والمشهور على الألسنة: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً فبي عرفوني، وهوواقع كثيراً في كلام الصوفية واعتمدوه وبنوا عليه أصولاً لهم.

(٢) الحديث: أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر، رواه عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله بلفظ، قال: قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل =

خلق من ذلك النورِ نورَ أرواحِ الأنبياء والأولياءِ والعلماءِ وجميعِ الناس فتمَّ عَالَمُ الأمر، ثم بعد خَلْقِ ذلك النورِ خَلَقَ جميعَ الأجسام والجُسْمَانيّات فتمَّ عالَمُ الخَلْقُ، فصارتِ الحقيقة المحمَّديةُ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ عقلاً كلياً، وعقلاً أوّلاً، وعقلاً بالفعل، وعقلاً فعّالاً، وهَيُوْلَى بالنسبة إلى جميع العالَم كما قال في الحديث النبويِّ: «أوّلُ ما خلق الله العقل»[1]، فصار الحديثان متوافقَيْنِ.

ويجبُ أنْ يُعْلَمَ أنّ الحقيقةَ المحمديةَ وسيلةٌ عاديةٌ لا إعداديةٌ في إيجاد العالَم، يعني أن الله صيّر الحقيقةَ المحمديةَ وسيلةً لخلق العالَم بحسَبِ عادتِهِ

= الأشياء، قال: يا جابر، إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره... إلخ الحديث، قال الشبراملسي: ليس المراد بقوله «من نوره» ظاهره من أن الله تعالى له نور قائم بذاته لاستحالته عليه تعالى، لأن النور لا يقوم إلا بالأجسام، بل المراد: خلق من نور مخلوق له قبل نور محمد وأضافه إليه تعالى لكونه تولى خلقه، ثم قال: ويحتمل أن الإضافة بيانية، أي خلق نور نبيه من نور هو ذاته تعالى لكن لا بمعنى أنها مادة خلق نور نبيه منها بل بمعنى أنه تعالى تعلقت إرادته بإيجاد نور بلا توسط شيء في وجوده، قال: وهذا أولى الأجوبة نظير ما ذكره البيضاوي في قوله تعالى: ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾ حيث قال: إضافه إلى نفسه تشريفاً وإشعاراً بأنه خلق عجيب وأن له مناسبة إلى حضرة الربوبية... وقيل: الأولية في كل شيء بالإضافة إلى جنسه، أي أول ما خلق الله من الأنوار نوري، وكذا باقيها.

(١) قال في «المقاصد» نقلاً عن ابن تيمية وغيره أنه كذب بموضوع باتفاق: وأخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل له وفيه من هذا النمط أشياء منها: أول ما خلق الله العقل وذكره، لكن ذكره في «الإحياء»، وقال العراقي في تخريج أحاديثه أخرجه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» وأبو نعيم بإسنادين ضعيفين، وقال السخاوي والسيوطي: رواه ابن أحمد في «زوائد الزهد» عن الحسن يرفعه وهو مرسل جيد الإسناد، ولا يلزم من رواية ابن المحبر أن يكون موضوعاً، لا سيما وقد رواه الأئمة بغير إسناد ابن المحبر فليس الحديث بموضوع. وقال الحافظ ابن حجر: والوارد في أول ما خلق الله، حديث: أول ما خلق الله القلم، وهو أثبت من حديث العقل، وحاول الجمع بينهما البيضاوي في طوالعه بأن قال: يشبه أن يكون هو العقل، لقوله: أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب... ويمكن أن يقال: الأولية فيهما نسبية، وقال قبيل ذلك: إن العقول عند الحكماء أول المخلوقات وإن العقل عندهم أعظم من الملائكة وأول المبدَعات (انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس).

تعالى لا بحسَبِ حاجَتِه، إذ يستطيع أن يُشَكِّلَ جميعَ العالَم بدونها، وأن لا يُشَكِّلَ شيئاً مع وجودِهَا، فلمَّا أراد الله أن يخلق البشر الظاهريَّ ــ يعني أبدان الإنسان ــ صيّر التراب الممتزجَ مع الماءِ والهواءِ والنارِ بصورةِ البشر، وخلق فيه الروح النباتيَّ والحيوانيَّ والإنسانيَّ الظاهريَّ، وصيّره آدم ــ عليه السلام ــ والمستفاد من آيات القرآنِ العظيمِ اشتمالُ المادّةِ الأَصلية لآدم ــ عليه السلام ــ على ذراتِ المادّة لجميعِ البشرِ الذي يوجدُ من نسلِهِ إلى يوم القيامة، وصرَّح به في كتاب «عوارف المعارف» و «تفسير البيضاوي» و «الجلالين» وغيرها، في مواضعَ من كتبهم في تفسير آية ﴿ ٱهْبِطُواْ ﴾ مع آدمَ وحواءَ والذراتِ، وهكذا كلُّ بشرٍ مُخْتَمِلٌ على جميع ذرّاتِ من يوجدُ من نسلِهِ إلى يوم القيامة. مثلاً: ذرّات جميعنا خرجتْ مع المنيِّ الذي خُلِقَ منه شِيْث ــ عليه السلام ــ في رَحِمِ حَواءَ، ومن صُلْبِ شيثٍ وصل إلى رَحِم زوجتِهِ وخُلِق منه ولدُهُ.. وهكذا حتى وصل إلى صُلْبِ أبينا ورَحِم أُمِّنَا فخلقنا منه فكان جميعنا موجوداً بهيئة الذَّرِّ في أصْلَاب آبائنا وأرحام أُمَّهاتنا؛ من آدمَ إلى أبينا، ومن حواءَ إلى أُمّنا، لكن مع التكابر تدريجياً صِرْنا في رَحِم أُمنا أربعين ليلةً نُطفةً ثم صِرْنَا علقةً إلى ثمانينَ، ثم صِرْنا مضغةً إلى عشرين ومائةٍ، وتلك التبدلاتُ والهيئاتُ والاستعدادات يقال لها: الإمْكان الاستعداديُّ، وهو حادثٌ لا قديمٌ كما تزعمه الفلاسفة.

وحقيقةُ البشرِ مركبٌ من خمسة مجرَّدات: الروحُ والقلبُ والسرُّ والخفيُّ والأخفى، وتلك الخمسةُ من عالم الأمر، وتعلُّقات بعضِها مع بعضٍ من جنس التعلُّقِ السادسِ، ومع جسمِ البشرِ من جنس التعلّقِ الخامسِ، وتعلّقُ كلٍّ منهما بالأجزاء الظاهريةِ والباطنيةِ من البشر سَرَيانيٌّ، مثلُ تعلُّقِ الريحِ بورق الزَّهْرَةِ، ولكنْ عند الصوفيةِ المدركينَ لحقيقةِ الأشياءِ يتعلّق القلبُ أولاً بالقلب الصَّنَوْبَرِيِّ الموجودِ تحت الثَّدْي الأيسر بمقدارِ أُصْبُعَينِ، ويتعلَّق الروحُ بمحلٍّ تحتَ الثَّدْي الأيمنِ بمقدارِ أُصْبُعَيْنِ، ويتعلّق الخفيُّ أولاً بمحلٍّ فوقَ الثَّدْي الأَيمنِ مائلاً إلى الجانبِ الأَيسرِ، ويتعلّق الأخفى أولاً بوسَطِ الصَّدْرِ، ويتعلَّق السرُّ أولاً بمحلٍّ فوقَ الثَّدْي الأَيسر، ويتشكَّلُ نصفُ دائرةٍ تقريباً من الروحِ إلى

الخفيِّ ومنه إلى الأخفى ومنه إلى السرِّ ومنه إلى القلبِ، وبواسطةِ تلك التعلُّقات يتعلَّقونَ بباقي الأعضاءِ. وأصلُ مادّةِ البشرِ هذه الذرَّات الواصلةُ إلى الأصلابِ والأرحامِ مع التناوبِ والتعاور.

والروح النباتيُّ عبارةٌ عن جسمٍ لطيفٍ مركّبٍ من العناصر الأربعة والقوّةِ النامية، ويقال لها الصورةُ النباتيّةُ. وهذا الروحُ موجودٌ في جميعِ الأشجارِ والنباتِ والحيوانِ وغيرها من الأجسامِ الناميةِ، ويتفرعُ عنه القوةُ الغاذيةُ والناميةُ والهاضمةُ والجاذبةُ والدافعةُ والمولّدةُ والمصوّرةُ وغيرُهَا.

والروحُ الحيوانيُّ جسمٌ لطيفٌ مركبٌ من العناصرِ الأربعة وقوّةِ الحسِّ وقوّةِ الحركة الإراديةِ، ويقال له: الصورةُ الحيوانيةُ. وهذا الروح الحيوانيُّ يوجد في جميع الحيواناتِ، ويتفرع عنه القوةُ المحرّكة والقوةُ الحساسة.

والقوةُ المحرّكة صفةٌ موجودةٌ في البشرِ والحيوانِ يفعلُ بها الحركةَ الإراديةَ، مثلُ السفرِ والبطشِ والقبضِ وتحريكِ اليدِ والرجلِ وغيره.

والقوةُ الحساسة صفةٌ باعثةٌ لإدراكِ الجزئياتِ الماديةِ، وهي عشرةٌ؛ خمسةٌ ظاهريةٌ، وخمسةٌ باطنيةٌ.

أما الظاهريةُ، فهي:

١ ــ القوة الباصرةُ بواسطة البصر.

٢ ــ والقوة السامعةُ بواسطة الأُذن.

٣ ــ والقوة الذائقةُ بواسطة اللسان.

٤ ــ والقوة الشامّةُ بواسطة الأنف.

٥ ــ والقوة اللّامسةُ بواسطة جميع البدنِ والأعضاءِ الظاهريةِ والباطنيةِ، سوى الكُلْيتينِ والكَبِدِ والرِّئتينِ والقلبِ والسِّنِ والشَّعَرِ والظُّفرِ.

وأما الباطنيةُ، فهي:

١ ــ الحسُّ المشترَكُ، وهو قوةٌ موجودةٌ في الدِّماغ، ووظيفتُهُ شيئانِ؛ الأَول: تخزينُ المحسوسات الظاهرةِ، والثاني: إحضارها بعد الغَيْبَةِ عن المُدْرَكِ، مثلاً: إذا رأيت لوناً أو سمعت صوتاً أو أحسست حرارةً أو ذُقْتَ حُلواً أو شَممتَ ريحاً، تصل تلك المُدْرَكَاتُ إلى الحسِّ المشترَك وهو يحفظُهَا وتبقى فيه حتى لا تُنْسَى، وإذا أردتَّ إحضارَهَا فيحضُرها لك.

٢ ــ الخيال، وهو في الدِّماغ أيضاً، ووظيفتُهُ شيئان؛ الأول: حفظُ مخزونات الحسِّ المشترَك عن النسيان والزوال، والثاني: حفظُ الترتيب.

والحاصل: أنّ وظيفتَه حراسةُ باب الحسِّ المشتَرَكِ؛ مثلاً: إذا رأيت قبل سنتين «أحمد» وقبل سنة «محمداً»؛ فبواسطة خزينةِ الخيال لا تخرج صورةُ محمدٍ وأحمدَ وترتيبُهما عن خاطرك.

٣ ــ الواهِمَة، وهي في الدِّماغ أيضاً، ووظيفتُهَا شيئان؛ الأَولُ: إدراكُ المعاني ــ غير القابلةِ للحسّ ــ التي ليس لها وجودٌ خارجيٌّ، مثلُ الجوعِ والشِّبَعِ والعطشِ والرِّيِّ والصداقةِ والعداوةِ، والثاني: التخزين.

٤ ــ الحافِظَة، وهي في الدِّماغ أيضاً، ووظيفتُهَا شيئان؛ الأَولُ: حفظُ مخزوناتِ الواهِمَةِ من النِّسْيَان، والثاني: حفظُ ترتيبها؛ لذا كانت حارسةً للواهِمَة.

٥ ــ المتصرِّفة، ويقال لها المتخيّلةُ والمفكِّرةُ أيضاً، وهي أيضاً في الدِّماغ، ووظيفتها شيئان؛ الأول: التركيب، والثاني: التحليل؛ سواءٌ كانا صحيحين أم باطلين. مثلاً: يوجد في الحسّ المشتَرك العسلُ والحلاوةُ والمَرارةُ وزيدٌ ورأسُهُ، لكنْ إذا أخذت المتصرِّفةُ العسلَ والحلاوةَ وركَّبَتْهُمَا بأن قالت: العسلُ حلوٌ، يكون صحيحاً، ولو ركّبتِ العسلَ مع المَرارةِ بأن قالت: العسلُ مرٌّ، يكون تركيباً غيرَ صحيح، ولو لم يسمع بقطع رأسِ زيدٍ لكنْ أخذ زيداً بدون رأس وقال: زيدٌ ليس له رأسٌ، يكون هذا التحليلُ غَلَطَاً. ولو سمع قطع رأس زيدٍ وقال: زيدٌ ليس له رأسٌ، يكون هذا التحليلُ صحيحاً.

ويلزم أن يعلم أنّ القوّةَ المتصرِّفةَ ـ ولو كانت تحتَ سلطةِ النفس الإنسانيِّ الظاهريِّ والروحِ المجرَّد ظاهراً ـ أنَّها في الواقع لها سلطةٌ على جميعِ القِوى الظاهرةِ والباطنةِ والنَّفسِ الإنسانية الظاهرة والروحِ المجرَّد وقِوَاهُمَا، والشيطانُ وهوى ٱلنفسِ واللذائذُ الجُسْمَانيةُ ـ كلُّهم ـ يعينُونَهَا؛ لذا فهي مشغولةٌ دائماً بموانعِ إدراكِ الحقائقِ الدينيَّةِ. وعليه: فأيُّ شخص صيّر روحَه المجرَّد غالباً على المتصرفة، يفوزُ بسعادة الدَّارين، ومن كان بالعكس يكونُ خاسراً فيهما، وهذا التفصيلُ يذكر ـ إن شاء الله ـ في بيان حقيقة العلم وجهادِ النفس.

مسألةٌ: النفسُ الإنسانيُّ:

ٱلنفس الإنسانية الظاهرة المادية هي جسمٌ لطيفٌ مركبٌ من العناصرِ الأَربعة، وقوّةِ إدراك العلوم الظاهرةِ، والقوّةِ القابلةِ لصُنع الصنائعِ الظاهرةِ، وفروعه: التعلُّق الظاهريُّ، وجميعُ الأَعمالِ الظاهرةِ، والصنائعُ الظاهرةُ الأثر، وأصلُ هيئاتِ العباداتِ الظاهرة؛ فيكونُ أَصلُ هيئةِ الصلاةِ والصومِ والحجِّ والجهادِ والمعاملاتِ والنِّكاحِ والطلاقِ وغيرها، وجميعُ معامل القنابلِ والطائراتِ وضبطِ الأَصوات وغيرها، من آثارِ هذه النفس الظاهرة؛ حتى لو لم يكن للبشر روحٌ وقلبٌ وباقي المجرَّدَاتِ، يستطيعُ جميعَ ما ذُكِرَ، لذا عدّ النبيُّ ﷺ الصلاةَ جزءاً من الدنيا ـ يعني من الآثارِ الظاهرةِ للنفس ـ وقال: «حُبِّبَ إليَّ من دُنْيَاكم النساءُ والطيبُ، وجُعلتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة»[1]، إلا أنها بواسطة النية والتوجه إلى الله تخرج عن جنسِ الدنيا وتدخل في فروع المجرَّدات الخمسةِ.

ومن فروع المجرَّداتِ الخمسةِ السابقةِ: الوصولُ إلى الله ومعرفتُهُ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» والنسائي والحاكم في «مستدركه» والبيهقي في «السنن» عن أنس، وليس فيه لفظ: «من دنياكم».

وإرجاعُ العناصر الأَربعةِ وقِوَاها إلى الله جلّ شأنُه، وتوجيهُ النيةِ في العباداتِ الظاهرة إلى الله جل شأنُه. مثلاً: الصلاة ـ مثلُ البَشَر ـ مركبةٌ من الماديات، وهي شروطُهَا وأركانها الظاهرةُ، والمجرَّداتِ مثلُ الخشوعِ والخضوعِ والتوجهِ إلى جناب قُدْسِهِ، فيكونُ منشأً الحركاتِ والسَّكَنَاتِ الماديَّاتِ هي النفسُ الحيوانيُّ، والهيئةُ والترتيبُ المختصَّانِ بها من النفس الإِنْسانيِّ الماديِّ، والخشوعُ والخضوعُ المجرَّدُ من النفسِ المجرَّد. قال ﷺ في الحديث السابق: «وجُعلتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة»، حتى يُستفاد منه أنَّ الصلاةَ فيها رائحةُ المجرَّدات، وقال أيضاً: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1] يعني: لا ينظر الله إلى الصورةِ الظاهرةِ الإنسانيةِ، ولكن إلى المُجرَّدات والنياتِ والتوجه إلى جانب القُدْسِ المتفرِّع عن الرُّوحِ المجرَدِ.

فعلم أن الإِنسان الظاهريَّ عبارةٌ عن هذه المادّةِ المركّبةِ من العناصرِ والروحِ النباتيِّ والحيوانيِّ والإِنسانية الظاهرية المتميّز بها عن باقي الحيواناتِ الظاهرةِ، ويستطيع أن يعمل الصنائع والأَعمال الظاهرةَ، ولو لم يوجد له المجرَّدات يستطيع أيضاً أن يعمل ما ذكر لكن لا يصل إلى الله تعالى.

والإِنسانُ الباطنيُّ عبارةٌ عن المجرَّدَاتِ الخمسِ، ولو لم يوجد الإِنْسانُ الظاهريُّ يستطيع أن يصل إليه تعالى لكن لا يستطيع أن يعمل الصنائع المذكورة؛ ففي عالم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أخرج الله الذرّاتِ اللاتي كانت في صُلْبِ أبينا آدمَ ـ عليه السلام ـ وأَلْصَقَ بها الروحَ المجرَّد وخاطبهم فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا جميعاً: بلى أنت ربُّنا وشريعتُك ودينُك حقٌّ ونقبلُهُ ونعمل به؛ فما احتاجوا في هذا الخطاب والجواب إلى الروح النباتيةِ والحيوانيةِ والإِنْسانيةِ الظاهرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾، أي: تفكَّر يا محمَّدُ في زمانِ إخراج ربِّك: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، من صُلْبِ بني آدمَ جميعَ الذرَّاتِ

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة.

الماديَّات للبشرِ إلى يوم القيامة ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وألْصَقْنَا أرواحَهم المجرَّدة بهم وصيَّرناهم عاقلينَ فاهمينَ متكلِّمينَ سامعينَ للأمور الدينيةِ التي كانت من فروع الرُّوح المجرَّد، وصيَّرناهم شاهدينَ على أنفسهم وقلت: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾، قالوا جميعاً: أنت ربُّنا وقبلْنَاكَ وشريعَتَك: ﴿شَهِدْنَآ﴾، على أنفسنا نُقِرُّ بهذا الميثاق معك: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾، حتى لا تقولوا يومَ القيامةِ نَحْنُ عن هذا الميثاق والتكليفِ غافلون وما قاله لنا أحدٌ: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، كفر آباؤنا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾، فنحنُ كنا تَبَعاً لهم ومقلِّدين لهم ـ لأنهم أقوياء ـ فليس لنا قصورٌ، بل جميعُ القصورِ متوجّه إليهم: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]، أتعذبنا بعصيان آبائنا الضالين، فتكون هذه الآيةُ دالةً بالصراحة على أشياءَ:

أولها: كلُّ أبٍ مشتَمِلٌ على ذراتِ جميعِ ما يوجدُ من نسله إلى يوم القيامة، وهذا الموضوع مُستفادٌ من آياتٍ كثيرةٍ وصرَّح المفسرون به ومنهم البيضاويُّ إذ يقول في تفسير: ﴿حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١] كنتم في أصلاب آبائكم حين كانوا في سفينة نوح عليه السلام.

ثانيها: أنه يَكْفِي لأخذ الأُمور الدينية الروحُ المجرَّد وتعلُّقُه بالذرَّات؛ لهذا قال المتكلِّمون: لا يُشترط الحياةُ بالمِزاجِ والبُنْيَةِ والرُّوحِ الحيوانيِّ.

ثالثها: الرُّوحُ المجرَّد في أصل ذاتِهِ عارفٌ بالله ومستَعِدٌّ لسماعِ كلامِ الله وجوابِهِ، والإنْسانُ الظاهريُّ يعرفُ اللَّهَ ويسمعُ كلامَهُ بوسيلتِهِ.

رابعها: تعلُّق الرُّوح بجميعِ ذرَّاتِ طينةِ البشرِ لأَجْلِ قطعِ مَعْذِرَتِهِ الباطلة؛ لذا خاطبهم وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فجميعُ المِلَلِ والأَديانِ ـ سوى الملاحدةِ ـ قَبِلوا هذا الموضوعَ، وإنكارُهُ كما قال الشيخ ابن حجرٍ في «الفتاوي الحديثية»: «إلحادٌ وزندقةٌ، قال: «والتعجُّبُ من البيضاويِّ حيث تَبعَ الملاحِدَةَ في هذا الإنْكارِ[١]، وأنا أظنُّ أنّ البيضاويَّ زعم أن هذا التعلُّقَ تناسخٌ، وهو باطلٌ».

(١) أما إنكار البيضاوي فمذكور في تفسيره للآية الكريمة فليراجع هناك. =

لكن هذا الزعم ليس بصحيح إذ لا يُشْتَمُّ منه ريحُ التناسخ؛ لأن التناسخَ هو أن يتعلَّقَ روحُ شخصٍ بشخصٍ آخرَ وكان عددُ الأبدان زائداً عن عدد الأرواح، وهذا أصل ذرَّاتِ كلِّ بشرٍ عيَّن بدنُهُ كما سيجيءُ ــ إن شاء الله ــ في تحقيق خَلْقِ النُّطْفَةِ في الرَّحِم.

وهكذا نستطيع أن نقول: إنّ تعلُّقَ الأرواح بالذرَّات من أوّل زمانٍ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ إلى آخرِ زمانِ خرابِ الدنيا باقٍ، كما أنّ خطابَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ صريحٌ فيه، وكذلك جميعُ خطابِ القرآنِ مع الأبناءِ بٱمتنان إنعام الآباءِ عليهم، مثل: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩]، وأمثالُهَا كثيرةٌ.

خامسها: خطابُ اللّهِ بــ﴿أَلَسْتُ﴾ كان مرةً واحدةً، وجوابُ كلِّهم كان ﴿بَلَىٰ﴾ أنت ربنا، وما قال أحد: نعم، وإلاّ لم يقطع معذرتهم، لكنّ اليهودَ قالوا ٱفتراءً للإضلال: إنّ قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قاله مرتين، وٱفترق الناس أربع فرق؛ بعضهم قال بلى في المرتين، وهم من كان مسلماً أوّلاً وآخراً، وبعضُهم قال نعم فيهما، وهم من كان كافراً أوّلاً وآخراً، وفرقةٌ قالت نعم في المرَّة الأُولى وبلى في الثانية، وهم من كان كافراً أوّلاً ومسلماً آخراً، وبعضُهم قال بلى أوّلاً ونعم آخراً، وهم من كان مسلماً أوّلاً ثم صار مرتداً!.

وبعضُ العلماءِ غافلٌ عن كون هذا القولِ ٱفتراءً من اليهود ومخالفاً لنصِّ القرآن؛ فكتبوه في كتبهم وصيّره العوامُّ ــ بل بعضُ العلماء أيضاً ــ عقيدةً لهم؛ فيَلْزَمُ على العلماءِ والمستفيدين أن يَحْذِفُوه من كتبِهم وعقيدتِهم ويصحِّحُوا

= وأما عبارة ابن حجر في «الفتاوي الحديثية»، فهي: «الأول: يوم ألست بربكم، حين استخرجوا من ظهر آدم كالذر، ويقال: إنه كان مرتين، قيل: وكانت أرواحاً بلا أجسام، والحق عند أهل السنة أنها كانت مركبة في أجسام، وأنكر هذا طوائف، وعجيب من البيضاوي وغيره أنه وافقهم، وقد قال بعض الأئمة: إن إنكاره إلحاد في الدين» إ.هـ. (ص٨٩).

عقائد العوامّ.

وقال بعض المفسرين ــ أيضاً ــ في تفسير آية: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧]: إن إبراهيم ــ عليه الصَّلاة والسَّلام ــ صَعَّدَ بعد إتمام ٱلكَعْبَةِ على جبلٍ ونادى: يا أيها الناس حُجُّوا البيتَ، فعلَّق اللَّهُ الأَرواحَ بالذراتِ الموجودةِ في أصلاب الآباءِ وسَمِعُوا صوتَ إبراهيم ووعدُوهِ بالقَبُول.

قال الشيخ ٱبن حجر في «فتاويه»: هذا الإحياء غيرُ الإِحْياءِ الذي وُجِدَ في زمانِ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾.

وأقول ــ بناءً على عدم ٱنقطاع تعلُّقِ الروح ــ: هذا الإحياء هو عينُ الإحياءِ الأوّل ذاتاً وإن كانا متغايرين ٱعتباراً، والعَجَبُ من البيضاويِّ قَبِل هذا الإِحْياءَ وردّ الإحياءَ الأولَ مع عدمِ التفاوت بينهما!.

ويلزم أنْ يُعْلَم أنّ بعد إتمامِ بَدَنِ الشخصِ يتعلق ذَرُّهُ الأَصْلِيُّ بِعَجْبِ ذَنَبِهِ، وَعَجْبُ الذَّنَبِ يبقى إلى وقتِ النفخة الأُولى؛ ففيها تَفْنَى جميعُ الأَشياءِ سوى اللَّهِ تعالى. وتتعلَّق مجرَّداتُ الشخصِ بِعَجْبِ ذَنَبِهِ أيضاً، فبهذا يُدْرِكُ الثواب والعقاب في القَبْرِ، وأمَّا مُنْكِرُو العقابِ والثواب القبرِيَّيْنِ فلم يعرفوا حقيقةَ البشر.

فعُلِمَ أنّ ذَرَّ كلِّ شخصٍ موجودٌ من خلق آدم ــ عليه السلام ــ إلى وقت القيامة، وروحه متعلِّقٌ به وقابل لإدراكِ الأُمور الغيبيةِ الرُّوحانيةِ ــ مثلِ الإيمان بالغيب ــ والجُسْمَانية ــ مثلِ الثوابِ والعقاب القبرِيَّيْن ــ.

مسألةٌ: كيفيةُ خَلْقِ البَشَرِ في الرَّحِمِ:

الذَّرُ هو المادّةُ لكلِّ شخصٍ يَخْرُج من صُلْبِ آدم ــ عليه السلام ــ ويَصِلُ بالتَّناوب إلى صُلْبِ أبيه الحقيقيِّ، وهناك يَصِيرُ مَنِيّاً ويخرجُ من صُلْبِ أبيه إلى

رَحِمِ أُمِّهِ، ومنه يَصِيْرُ تدريجياً بواسطةِ النَّفْسِ النَّباتِيّةِ المادّيةِ إلى التجمُّد. فبعدَ إتمام أربعين يوماً يحمرُّ لونُهُ ويُقال له النُّطْفَة، ثم يَصِيرُ تجمدُّه التجمُّدَ الدَّمَوِيَّ إلى أن يُتِمَّ أربعينَ يوماً يَصِيْرُ قِطْعَةً من الدَّمِ ويقال له العَلَقَة، ثم يتحوَّلُ إلى التجمُّدِ اللحميّ إلى أن يُتِمَّ أربعينَ يوماً ثم يَصِيْرُ لَحْماً ويقال له المُضْغَة؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [غافر: ٦٧].

يعني: خَلَقَكُم اللّهُ أوّلاً ذَرَّةً تُرابِيّةً في صُلْبِ أبيكم آدم ــ عليه السلام ــ ثُمَّ نُطْفَةً ثم عَلَقَةً، فبعدَ انقضاءِ أربعة أشهر يُرْسِلُ اللّهُ مَلَكاً ويأمُرُهُ أنْ يصوِّرَه بصورةِ البَشَرِ ذكراً أو أُنْثَى، ويخلقُ اللّهُ الرُّوحَ النَّباتيَّ والحيوانيَّ والإنْسَانية الظاهرة[1]، لكنِ الرّوحُ النباتيُّ والإنسانيُّ الظاهريُّ يُرَىٰ في جميع ذَرَّاتِ المُضْغَةِ المصوَّرَةِ، ويُرَىٰ الرُّوحُ الحيوانيُّ في جميعِها سوى الشَّعَرِ والظُّفُرِ والكُلْيَةِ والقَلْبِ والكَبِدِ والسِّنِّ، لأنّ تلك الأشياءَ ليس لها نصيبٌ في الرُّوحِ الحيوانيِّ وقوَاه.

والدِّمَاغُ مؤلَّفٌ من نِصْفَيْ كُرَةٍ: نصفٌ في مُقَدَّمِ الوجهِ والنصفُ الآخرُ في مُؤخَّرِ الرَّأْسِ، وفي وَسَطِ تلك الكُرَةِ الكبيرةِ ثلاثُ كُرَاتٍ صغيرةٍ بحيثُ يقع نصفُ كلٍّ من تلك الكُرَاتِ الثلاثِ في النِّصْفِ المؤخَّر من الكبيرة، ونصفُهُ الآخرُ في النِّصْفِ المُقَدَّمِ من الكبيرةِ. ونصفُ الكُرَةِ الصغيرةِ السافِلَةِ القريبةِ من الأنْف هي مَحَلُّ الحسِّ المُشْتَرَكِ، ونصفُهَا المؤخَّرُ مَحَلُّ خزينةِ الخَيالِ، ومجموعُ الكُرَةِ الصغيرةِ الوُسْطَى مَحَلُّ المتصرِّفَةِ، والنِّصْفُ المقدَّمُ من الصغيرةِ التاليةِ مَحَلُّ الواهمةِ، ونصفُهَا الأخيرُ المؤخَّرُ مَحَلُّ الحافِظَةِ.

والمحلُّ الأَصْلِيُّ لجميعِ الحواسِّ الخمسِ الظاهرةِ هو ــ أيضاً ــ الدِّمَاغُ، ومَحَلُّ السُّلْطَةِ الرئيسيَّةِ للنفسِ الإنْسَانيِّ الظاهريِّ هو جبينُ الشَّخْصِ وجَبْهَتُهُ.

والملَكُ المأمورُ بتصوير المُضْغَةِ مأمورٌ ــ أيضاً ــ بتقسيم تلك المُضْغَةِ إلى العَضَلاتِ والمفاصِلِ والبَشَرَةِ والسِّنِّ والشَّعَرِ والظُّفُرِ وغيرِها، ويرتِّب

---

(١) وهي غير الروح المجرد.

الأعصابَ والعظامَ بنحوٍ يُوْجِدُ الارتباطَ بين جميعِها.

وعددُ العِظَامِ والأعصابِ غيرُ معلومٍ حقيقةً لغيرِ اللّهِ تعالى، وعلماءُ التشريحِ المتقدِّمونَ والمتأخرونَ عاجزونَ عن عَدِّها، لكنَّ عددَ مُهِمَّات كلٍّ منها ثلاثُمِائةٍ وسِتُّون مُهِمَّةً.

وجميعُ الأعْصَابِ مجوَّفَةٌ، وفي جَوْفِ كلِّ عَصَبٍ قوةٌ نورانيةٌ، ويتصلُ رَأْسُ كلِّ واحدٍ منها بالقَلْبِ الصَّنَوْبَرِيِّ اللحميِّ وبالكُرَةِ الصغيرةِ الوُسْطَى مَحَلِّ المتصرِّفةِ حتى يُمْكِنَ إرسالُ جميع قوى الأرواح الثلاثةِ الماديّةِ وقوى المجرَّدات وآثارِهَا من مَجْمَع القَلْبِ ـ ويقال له الوتينُ ـ بواسطةِ الأعصاب إلى جميعِ البَدَنِ وذلك بأنْ يرسلَ إلى المتصرّفةِ ومنها إلى جميعِ البدن.

والرُّوحُ المجرَّد يُشَكِّل تشكيلاتِهِ المَلَكِيّةَ تحتَ ثديهِ الأيمنِ، والقَلْبُ المجرَّد يُشَكِّل تشكيلاتِهِ السُّلْطَانِيّةَ تحتَ الثدي الأيسرِ، والنَّفْسُ الإنْسَانيُّ الظاهريُّ يُشَكِّل تشكيلاتِهِ المَلَكِيّةَ في نُقْطَةِ حظِّ اللَّعِيْنِ من القَلْبِ الصَّنَوْبَرِيِّ؛ ويصيرُ الشيطانُ سلطانَهُ، والمتصرِّفَةُ بِحَسَبِ الظاهرِ تَحْتَ سُلْطَتَيْنِ: سُلطانية القَلْبِ والشيطانِ، وسلطانية النفس الأمَّارة بالسُّوءِ، ولكنَّها في الحقيقةِ مائلةٌ إلى أتباعِ النفسِ والشيطانِ حتى يكونا مغلوبين بواسطةِ المجاهَدَةِ للرُّوح المجرَّد.

وبعد تَمَامِ خَلْقِ الإنْسانِ الظاهريِّ والأرواحِ وتعلُّقِ المجرَّدات في الرَّحِمِ ـ وذلك بعدَ أربعةِ أشْهرٍ ـ يَخْلُقُ اللّهُ نوراً في تَمَامِ ذرَّات الماديَّاتِ الأرْبَعِ والمجرَّدَاتِ الخمسةِ؛ يحصل بواسطتِهِ للشَّخْص قُوَّةٌ يستطيع بها أن يعلمَ جميعَ ما أراد عِلْمَه ويقال لها: العقلُ والعاقلةُ والعِلْمُ الاسْمِيُّ، وهذه القُوَّةُ موجودةٌ لجميعِ البَشَرِ، صغيرِهم وكبيرِهم، عاقِلِهم ومجنونِهم، وفي جميع ذرَّاتِ الوجودِ، وهي سارية فيه[1]، ويستطيعُ الإنسان بواسطتها أن يَرَى بجميعِ ذرَّات

---

(١) سريانُها وتعلُّقها كائن بالطريقة المذكورة سابقاً من تعلّق المجرّد بالماديّات والمجرّدات، فلا تَحُلّ في محلّ ولا تَسْكُنُ في مكان، وليس البدنُ مكانَ الرُّوحِ ولا مَحَلَّ القَلْبِ، بل البدنُ آلةُ الرُّوحِ وأداةُ القَلْبِ ومَرْكَبُ النَّفْسِ... ومن أراد التوسعَ في ذلك فليرجعْ إلى =

الوجودِ الظاهرةِ والباطنةِ من الرَّأسِ والظَّهْرِ والبَطْنِ وغيرِهِ، ويسمع ويذوق ويَشَمّ وَيَلْمُس ويتخيَّل ويتوهَّم ويركِّب ويحلِّل ويعقِل.

ويتفرَّع على ما ذكرنا قولُ المتكلمين: إنّ مرجعَ الحواسِّ الظاهرةِ والباطنةِ العقلُ، وقول أبي الحسن الأشعريِّ ــ رحمه الله ــ: يستطيع البشرُ أَنْ يحسَّ بكلِّ حاسةٍ من الحواسِّ الخمسِ مُدْرَكَاتِ باقي الحواسِّ، وعدمُ حسِّنا بواسطةِ غِطَاءِ العالَمِ الظُّلْمَانيِّ الماديِّ؛ لكنْ بَقِيَ في العين قوةُ الإِبْصَارِ، وفي الأُذْنِ قوةُ السَّمْعِ، وفي اللسانِ قوةُ الذَّوقِ، وفي الدائرة الصغيرة الأولى السُّفْلى قوةُ التخيُّلِ، والدائرةِ الصغيرةِ العُلْيا قوةُ التوهّمِ، والوُسْطَى قوةُ التحليلِ والتركيبِ، وفي القلب الصَّنَوْبَرِيّ قوةُ التعقل؛ لاحتياجات البشر.

ومن أجلِ ٱشتراطِ حياةِ الحيوان باللَّمسِ ــ كما أطبق الأَطباءُ على أن فواتَ اللَّمْسِ سببُ فواتِ الحيوان ــ بَقِيَتِ اللاَّمِسةُ في جميعِ ذرَّات الوجودِ سوى ما اسْتُثْنِيَ منها، وهذا الغِطَاءُ يرتفعُ بالموتِ كما قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ [ق: ٢٢] يعني: رفعنا سِتْرَ الظُّلْمَة عنكم فَيَرى بصرُكم لِحِدَّتِهِ جميعَ الأَشياء من الأَرواحِ والأَشباحِ والشياطينِ وعذابِ جهنَّمَ وثوابِ الجنّةِ وغيرِها.

ورؤيةُ اللَّهِ تعالى بجميع ذرَّاتِ الوجودِ بدونِ جهةٍ ومقابلةٍ، وسماعُ كلامِهِ؛ مبنيٌّ على ما ذكرنا، ولكنْ مَنْ أضلَّهُ اللَّهُ ولم يعلمْ حقيقةَ البشرِ وَقَعَ في حَيْصَ بَيْصَ.

وإذا بلغ البشرُ أوانَ المراهقةِ ــ يعني قبل البلوغ بقليل ــ يَخْلُقُ اللَّهُ فيه نوراً آخرَ يُرَى في جميعِ ذرَّاتِ وجودِهِ الماديِّ والمجرَّدِ، ويحصُلُ له بواسطتِهِ قُوَّةٌ يستطيعُ بواسطتِهَا أنْ يهيِّءَ جميعَ وسائلِ اعتقاداتِهِ الدينيةِ، وهذه القوةُ يقال لها أيضاً العقلُ والعاقلةُ والعلمُ الاسْمِيُّ، وهذه القوةُ موجودةٌ في كلِّ بالغٍ عاقلٍ، ولكنْ لا توجد في الصبيِّ والمجنونِ، وهي مدارُ التكليفِ.

= «الرسالة اللدنية» للإمام الغزّالي، مبحث «شرح النفس والروح الإنساني».

وهاتانِ القوتانِ ليستا ٱختياريتين ــ يعني يخلقهما الله تعالى بدونِ ٱختيار العبد ــ وإذا ٱستعمل العبدُ هاتين القوتينِ في العقائدِ الإسْلاَميةِ وٱشْتَغَلَ بتحصيلِهَا يُسَيِّرُ الله تلك القوتين في جميع ذَرَّاتِ البَشَرِ ويحصلُ له قوة أُخرى يَصِلُ بواسِطِها إلى العقائدِ الصحيحةِ ويقال لها عقلٌ وعاقلةٌ وعِلْمٌ ٱسْمِيٌّ ونورٌ وهدىً وإيمانٌ وذِكْرٌ، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] يعني: أن اللَّهَ ناصرُ ومحبُ مَنْ آمَنَ بِهِ، ويُخْرِجهم من ظُلْمَةِ الكفرِ والجهل إلى نورِ الإِيْمَانِ والعلم ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، فحيئنذٍ يُخرج مادياتهِ عن الظُّلْمَةِ ويَنْقُصُ تسافلُهَا وتنوَّرُ في الجُمْلَةِ، ويرتفع قليلاً ويكتسب التقرُّبَ من الله، وهذه القوّةُ موجودةٌ في جميعِ المسلمينَ العادلينَ والفاسقين، لكن لا توجدُ في الكافرين، وإذا استعملها في الاعتقاداتِ الباطلةِ والكفرِ تسري الظُّلْمَةِ في جميعِ مادياتهِ ومجرّداتِهِ، وينصرِفُ بتلك الظُّلْمَة عن العقائدِ الحَقَّةِ، ويُقال لهذه الحالَةِ: الكفرُ والظُّلْمَةُ والصَّمَمَ والعَمَى والبَكَمُ والقَسْوةُ والغِشَاوَةُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وأيُّ شخصٍ قرأ القرآنَ بالتدبُّرِ والتأمُّلِ يرى ذلك التفصيلَ، ففي أيِّ موضعٍ من القرآنِ يُسْلَبُ عن الكَفَرَةِ العقلُ والشعورُ فمرادُهُ هذا العقل، وفي حالة الكفر تكونُ الماديَّاتُ كلُّهَا ظُلْمَانِيَّةً ــ أعاذنا الله منها ــ وتتسافل المجرَّدات عن النورانيةِ والتَّعالي. وجميع المادياتِ والظُّلْمَانِيّاتِ والمتسافلاتِ ليس لها ٱستعدادُ التقرُّب من الله، فلا يكون لهم موضعٌ إلاّ الجحيمُ، كما أشير إليه في مواضعَ من القرآنِ ــ وأنا أكتبه في أثناءِ تفسير سورة «والتين والزيتون» ــ.

ولو ٱستعمل شخصٌ هذه القُوَى الثلاثَ في كسبِ الأعمالِ والعباداتِ والاجتنابِ عن المناهي، يوجد نور ويسري في جميعِ ذَرَّاتِ وجودِهِ ويحصلُ من

أَثَرِهِ قوةٌ يستطيعُ الشخصُ أن يفعلَ بِهَا جميعَ العبادَاتِ ويتركَ الْمَنْهِيَّاتِ، ويقال لها: القوةُ العاقلةُ والعقلُ والعلم الاسْمِيُّ والعدلُ والهُدَى والنورُ، كما قيل: «العقل ما يُعْبد به الرحمن»، ولو آستعملها في المعاصي يحصُلُ الظُّلُمَاتُ في وجودِهِ، ويقال لها: الذَّنْبُ والعِصْيَانُ والسَّوَادُ والظُّلْمَةُ والفِسْقُ.

فَعُلِمَ من التفصيلاتِ السابقةِ؛ أنّ القوّةَ العاقلة أَرْبَعُ: اثنانِ غيرُ آختياريّينِ، وآثْنانِ آختياريّانِ ـ يعني: يحصلُ خلقُ اللّهِ لهما بوسيلةِ آختيار العبد ـ فَعُلِمَ أَنّ الإِنْسَانَ يستطيع أَنْ يُخْرِجَ مجرَّدَاتِهِ من إِسَارَةِ الماديَّاتِ ويوصلَ مادِيَاتِهِ إلى أَنْ يتقرَّبَ إلى الله، كما أنه يستطيع أن يُخْرِجَ الماديّاتِ من إِسَارَةِ المجرَّدَاتِ ويُدْخلَهَا مع المجرَّدَاتِ في سِلْكٍ واحدٍ متساويين ويُبْعِدُ جميعَها عن الله.

فحقيقةُ البَشَرِ: تلك المجرَّدَاتُ العاليةُ، لكنْ تتسافلُ بالامتزاجِ مع الماديَّاتِ المتسافِلةِ، كما سنوضحُ ذلك من خلال تفسير سورة «التين».

قال الله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ [التين: ١] أقسم بهما لأنهما في آبتداء خِلْقَتِهِمَا لهما رُوحٌ ورَوْحٌ يَجْلِبَان توجُّهَ الناسِ إليهما ـ كما هو معلومٌ لدى جميعِ الناس ـ فلذا لهما علوُّ شأنٍ يقتضي أن يطلبَهُمَا الأنبياءُ والملوكُ والوزراءُ، ويرفعوهُمَا إلى منازلهم العاليةِ ولا يَرْضَوْا ببقائهَا في المنزلِ بل يرفعونهما إلى أفواههم تقويةً لوجودِهم؛ لكنْ بعدَ مصاحبةِ المَعِدَةِ وتسافُلِ المجالسةِ يَخْرُجَان من الطريقِ السافلِ ولا يبقى لهما الرُّوْحُ والرَّوْحُ السابقانِ، ولا يبقى لهما موضعٌ في المنازلِ والطريقِ إلا المزابلَ ومواضعَ الأقذار، فهما في الابتداءِ وعدمِ مجاورةِ الخبائثِ في نهايةِ التَّعَالِي، وبعدَ المصاحبةِ والمجاورةِ لأَمْكِنَةِ النجاساتِ في نهايةِ التَّسَافُلِ، مع أَنّ حالتَهُمَا في الحالينِ واحدةٌ، لكن المجاورةَ مؤثرةٌ.

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: ٢، ٣] أقسم أيضاً بالكعبةِ وجبلِ الطُّوْرِ اللذَيْنِ كانا في أوّلِ الْخِلْقَةِ تراباً وحجراً وشجراً، وكانا من

العُنْصُرِيَّاتِ المُتَسَافِلاَتِ، لَكِنْ بواسطةِ وقوع المُنَاجَاةِ والعِبَادَاتِ فيهما بُدِّلَ تسافُلُهما بالتَّعَالِي فصارَا قِبْلَةَ النَّاسِ، ومُقْسَمَ الرَّبِّ، وجزءاً من الجنة.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤] أي: خلقنا البَشَرَ في أحسنِ وأثْبَتِ الأَخْلاَق ــ أعني: عالمَ الأَمْرِ ــ.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: ٥]: ثم بعد اْمْتِزاجِهِ بالماديَّاتِ وإسارته لها اْختياراً؛ جعلناه أسفلَ السَّافِلِين، أي: جعلنا مجرَّدَاتِهِ كالماديّاتِ، وَمَا بَقِيَ لهم موضعٌ إلاّ الجحيمُ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦] يعني: المؤمنين العاملين، مع أنه ما بَدَّلَ مجرَّدَاتِهِم بالماديّاتِ، بل بالعكس؛ بَدَّلَ ماديّاتِهِم بالمجرَّدَاتِ، فلذا صاروا من سكَّانِ الجَنَّةِ.

فيكونُ حاصلُ هذه السورةِ المباركةِ: الاستدلالَ بأنه كما بَدَّلَ الكعبةَ وجبلَ الطُّوْرِ من غايةِ التَّسَافُلِ إلى غاية التَّعَالي، يستطيعُ البَشَرُ بواسطةِ العبادةِ ومجاوَرَةِ الصُّلَحَاءِ أن يرفَعُوا ماديَّاتِهِم من التَّسَافُلِ إلى المجرَّدَاتِ العاليةِ، ويتقرَّبُوا من الرَّبِّ ــ وهم المؤمنون ــ.

وغايةُ هذا التَّعَالِي وتجرّدِ الماديّاتِ حصلَ لِحَضْرَةِ الرَّسُوْلِ ــ ﷺ ــ فلذا حصل له المِعْرَاجُ الجُسْمَانِيُّ، وأَبْصر بجميع ذرات وجوده، ولم يكن له ظِلٌّ.

والاستدلالَ بأنه كما بَدَّلَ التينَ والزيتونَ مع غايةِ التَّعالي ــ بواسطة مُجَاوَرَةِ الأَمْكِنَةِ الخبيثةِ ــ إلى غاية التسافل؛ بُدِّلَت مجرَّدَاتُ الكفرة ــ بواسطة عدمِ الإِيْمَان والإِسَارَةِ للماديّات ــ بالماديّاتِ بحيثُ كأنه لم يبقَ له رُوْحٌ إنسانيٌّ باطنيٌّ، وَبَدَّلَ جميعَ مجرَّدَاتِهِ بالماديّاتِ وتسافَلَ غايةَ التَّسَافُلِ بحيثُ لم يبقَ له الاستعدادُ لدخول الجنَّةِ؛ فكان جَهَنَّمِياً أبدِيّاً، فصيّروا أنفسهم كالفضلاتِ ليس لهم موقعٌ إلاّ مزبلةُ الجحيم!.

ومثالُ التركيبِ من المجرَّد والماديِّ وإِسَارَةِ كلٍّ منهما للآخرِ ما سنذكُره بَعْدُ، وهو أنه معلومٌ لكلِّ أَحَدٍ أنّ الكُرَةَ النَّارِيّةَ تَحْتَ كُرَةِ القمرِ ومائلةٌ إلى العلوِّ، لو لم يَعُقِ النار عائقٌ يتصاعد، ومع هذا الوصف المذكور، هو أسير في شجرة التوت مثلاً، المركّب من العناصر الأربعة. وإذا قطع وأحرق ترى النار الحار المتصاعد يخرج منه وينفك عن الإِسَارة ويتصاعد ويبقى على الأرض رماد فيه عنصر النار[1] كباقي العناصر، لكن لإسارته للتراب يبقى في الأرض ويتصاعد الدخان ومعه بعض النار والتراب الصغير في غاية الصغر والهواء حتى تَصِلَ إلى كرة الهواء الصِّرْف. فَأَصْلُ الهواءِ وبعضُ الأَجْزَاءِ الناريةِ والتُّرَابيةِ يتحلَّل إلى الهوائية ويَبْقَى هناك، والبعضُ الآخرُ منهما يتصاعدُ بواسطةِ غلبةِ النَّارية إلى الكُرَة النَّارية ويتحلَّل هناك إلى النارِ الخالصِ؛ فصار الترابُ المتسافلُ ناراً عاليةً بمجاورتها، كما أن بعض النار الباقي مع الرَّمَاد ــ مع كونِهِ متعالياً ــ صار تراباً ورماداً متسافلاً بمجاورته وغلبته؛ فيحترق الشجر حتى يصير جمراً مُوْقَداً ثم يَسْتُره الرَّمَادُ حتى يصيرَ رماداً خالصاً، وتخرج النارُ عن كثافةِ تسافلِ التُّرَابِ والماءِ والهواءِ ويحصلُ لطافتُهَا وتصلُ إلى مقرِّهَا الأَصْليِّ، فتكون هناك كرةً ناريّةً غيرَ صالحةٍ، ثم بمرورِ الزَّمَانِ تصيرُ ناراً ألطف.

فهكذا تصير الماديَّاتُ أَسيرةً للمجرَّدَاتِ والمجرَّدَاتُ أسيرةً للمادياتِ بالمخالطة؛ بأنْ يجعلَ المؤمنُ بالعبادتِ والمجاهداتِ ماديّاتِهِ أَسيرةً لمجرَّدَاتِهِ ويجعلَهَا متعاليةً، أو يجعلَ بالكفرِ والعِصْيَانِ مجرَّدَاتِهِ ماديّاتٍ متسافلةً، إلاّ أَنّ النارَ تنتهي لطافتُهَا بوصولها إلى مقرِّهَا وبقائها فيه، بينما تلاطفُ المادّياتِ الموجِبُ لترقّياتِ المجرّدَاتِ لا ينتهي أبداً؛ لأنّ الغرضَ من تلك اللطافةِ التقربُ من ربِّ الأَرْبَاب، ومعلومٌ أن مسافةَ لطافةِ هذا المقام غيرُ متناهيةٍ، وليس لها غايةٌ فلا يصلها البشرُ ــ وهذه حكمةُ أبديَّةِ الجنة ــ فتكون المجرَّدَاتُ والمادّياتُ في الجنةِ مشتغلةً دائماً في التعالي والتقربِ والتلاطفِ، وهذا التدرُّجُ في التعالي

(١) النار: هي جوهر لطيف محرق؛ مفرّقُ المختلفات وجامع المتشابهات إ.هـ.

يقال له: التَّجْدِيْدَات.

وقد أشكل هذا الموضوعُ عليَّ سابقاً؛ لأنّ عادةَ اللَّهِ السَّنيَّةَ جاريةٌ بأنه لا توجدُ نعمةٌ بدونِ مجاهدةٍ ومشقةٍ، والجنةُ ليست بدارِ مجاهدةٍ ومشقةٍ؟! حتى رأيتُ في كتابِ الشوق في «الإحياء»: أنّ مراتبَ شوقِ الوصول إلى الحقيقةِ الأحديةِ غيرُ متناهيةٍ، وهذا الشوقُ والمجاهدةُ للوصولِ ليسا بمشقةٍ بل عينُ اللذة! مثلُ حالِ القبضِ الحاصلِ لشاربِ الخمرِ في البداية، فهو سببٌ للبَسْط.

مسألةٌ: وظيفةُ المجرَّدَاتِ وأقسامُ البَشَرِ:

وظيفةُ مجرَّدَاتِ البَشَرِ شيئان؛ **أحدهما**: التصديقُ والإيمانُ بذاتِ اللَّهِ وصفاتِهِ وباقي المعتَقَدَاتِ الدينيّةِ. **وثانيهما**: الاستغراقُ في العباداتِ والعِرْفَانِ، وكسبُ ٱزْديادِ الكمالِ في المعرفةِ، وتوسعةُ مسافةِ القُرْبِ والوصولِ، وٱزْديادُ ٱستعداداتِ التوجُهَاتِ الرَّبَانِيةِ وفيضانِ أنوارِهِ الصَّمَدَانيةِ.

ووظيفةُ أصل الأَمَّارَةِ شيئانِ ــ أيضاً ــ؛ **الأول**: الكفرُ. **والثاني**: الفسقُ.

ولهذا: كان البَشَرُ ثمانية أقسامٍ:

القِسم الأَوَّلُ: الكافر؛ وهو إذا لم يكن واحد من معتقدات الشخص مطابقاً لأمْرِ اللَّهِ وشريعتِهِ، فتكون مجرَّدَاتُهُ خارجةً عن ساحةِ القُدْسِ وعالمِ الأمر، وليس له ٱسْتعدادُ المعرفةِ والتقرُّبِ من اللَّهِ، بل بُدِّلَ ذلك الاستعداد بٱسْتعدادِ الجهلِ والعداوةِ وٱجتمعَ مع الماديَّات في أَسفل سافلِ الماديَّات.

ومن حيثُ إن مبنى الأعمالِ على صحةِ الاعتقادِ؛ فإذا ضربتَ المَبْنَى يَخْرَبُ المُبْنَى عليه، فتكون جميعُ أعمالِهِ الحَسَنَةِ باطلةً، كما قال تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [المائدة: ٥٣] فكما أنّ مجرَّداتِهِمْ بَعُدَتْ عن ساحةِ الحضورِ؛ فبالمقابل قَوِيَتْ نَفْسُهم الأَمَّارةُ، وهُيِّئَتْ مع الفراعِنَةِ تَهْيئَةً تامّةً لتحصيلِ الجِيْفَةِ الدُّنْيَويّةِ، فتشتغلُ ــ دائماً ــ بتوسيع مَنْبَعِ الصنائعِ الظاهرةِ الغريبةِ والأدواتِ العجيبةِ والأعمالِ المُعْجَبَةِ والمَقْبُوْلَةِ، فكلَّما توسعوا في الاستخراجِ والصنائعِ

زاد الله لهم إرخاءَ العِنَانِ والخَتْمَ والطَّبْعَ؛ فكانوا مِصْدَاقاً لقوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠] وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ [الحجر: ٣] فَيُسَدّ بَابُ إِدْرَاكِ مغيّبَاتِ مجرَّداتِهِم فلا يتفكّرونَ إلاّ فيما فيه فائدةٌ دنيويةٌ، وإذا بُحِثَ معهم في الأُمور الدينيّةِ المرتبطةِ بالآخرة يظنُّوْنَهُ أساطيرَ الأوَّلِيْنَ، ويتَّهِمُوْنَ الباحثَ بأنه مخادِعٌ للعوامِّ وبحثُهُ خَدْعَةٌ، ويظنُّوْنَ أنّ العالمَ منحصرٌ في العالمِ الظاهريِّ الجُسْمَانِيِّ الظُّلْمَانِيِّ، والمنافعَ منحصرةٌ في المنافعِ الدنيوية.

ففيما ذكر دليل على أنّ مجرَّدَاتِهِم أنْقلبتْ ماديّاتٍ وما بَقِيَ فيها شائبةُ التجرُّدِ، ولكن إذا آمنَ الكافرُ قَبْلَ المَوْتِ؛ يُعْلَمُ أَنّ مجرَّدَاتِهِ لم تنقلبْ ولم تَصِرْ مطبوعاً ومختوماً عليها، لكنْ لِشِدَّةِ إِسَارَتِهَا في زمان الكفر ظُنَّ انقلابُهَا وصيرورتُهَا مادية مختوماً ومطبوعاً عليها.

القسمُ الثاني: المؤمن الفاسق العاصي؛ فإنّ مجرَّداتِهِ من حيثُ الإيمانُ والعَلاَقَةُ والمعرفةُ لخالقِهِ والعقائدُ الحسنةُ: باقيةٌ على تجردها، ومن حيثُ الأعمالُ الصالحةُ بعيدةٌ عن الله وصارتْ أسيرةً للماديّاتِ، فكان كلٌ من ماديّاتِهِ ومجرَّدَاتِهِ أسيراً للآخرِ في بعضِ الصفاتِ ومستقلاً في بعضٍ آخَرَ، فلذا كُلَّمَا سَمِعَ عقيدةً صحيحيةً صَدَّق بِهَا وقَبِلَهَا، لأنّ ماديّاتِهِ تنظرُ بعينِ المجرَّدَاتِ إلى شمسِ تجلِّيَاتِ الرَّبِّ، وإذا سَمِعَ أو رأى لذائذَ جُسْمَانِيَّةً يتصلُ بِهَا، لأن مجرَّدَاتِهِ نَقَصَ تجرُّدُهَا بظُلْمَةِ العِصْيَانِ، وليس لِماديّاتِهِ قدرةُ النظرِ إلى أنوارِ ومحاسنِ العباداتِ وظُلْمَةِ وقبائحِ العِصْيَانِ؛ حتى تفعلَ الحسناتِ وتتركَ السيئاتِ.

القسمُ الثالثُ: المسلم العادل ــ أعني: مسلماً ما فعل كبيرةً ولا أَصرَّ على صغيرة، أو فعلهما لكنْ تاب عنهما توبةً صحيحةً جامعةً للشروط: فمجرَّدَاتُ هذا القسمِ وماديَّاتُهُ صارتْ قويةً ــ من حيثُ الإيمانُ والأعمالُ الظاهرة ــ وعاملةً عارفةً أكثرَ مما كانتْ عليه قبلُ، وتنظر ماديّاتُهُ مِنْ رَوْزَنَةِ وَكُوَّةِ

المجرَّدَاتِ إلى تجلِّيَاتِ إفاضةِ أنوارِ العقائدِ الحقَّةِ وآثارِ الأعمال الظاهرةِ، وتَبْعُدُ قليلاً عن ظُلْمَةِ وكَثَافَةِ عالمِ الخلقِ وصارتْ تابعةً للمجرَّدَاتِ، ونفسُهُ الإنسانية الظاهرة وإنْ خَلَصَت عن الأَمَّارَةِ بالسُّوْءِ وصارت لوامةً، لكن لم يَزُلْ عنها ريحُ مباعدةِ الماديَّاتِ وعدمِ القُرْبِ من الله ولم يحصل لها كشفُ المغيَّباتِ والإِيْمَانُ الشهوديُّ والعلمُ اليقينيُّ، وما خلصت وما نجت من قبائح الرَّذَائِلِ النفسانيةِ، مثل الكِبْرِ الحَسَدِ والرِّيَاءِ والعُجْبِ وحبِّ المدحِ وبُغضِ الذَّمِّ، بل يمكن أن يقوَى الميلُ إليها، وكذلك لم يَزُلْ غطاءُ التباعدِ بالتمام عنها، فلا يستطيعُ أن يُحِسَّ ويتخيَّلَ ويتوهَّمَ ويتعقَّلَ بجميع ذرَّاتِ وجودِهِ، بل يكون مثلَ الأشخاصِ العاديينَ؛ لكن زاد في الإلهاماتِ والرُّؤى الصادقةِ ورقةِ القلب والانقيادِ لأوَامرِ الله، ولذا تعرجُ أعمالُهُ الظاهرةُ إلى آخرِ عالَمِ الخَلْقِ، يعني إلى سطح مُحَدَّبِ العرشِ، وليس له آستِعدادُ الصعودِ إلى عالمِ الأمر كما ثبت في الحديث: «إنَّ أعمالَ المرائي ليس لها حقُّ الصعودِ فوقَ العَرْشِ».

القسمُ الرابعُ: الأولياء ـ رضي الله تعالى عنهم ـ وهؤلاء ـ فضلاً عن أنهم مثلُ القسم الثالث ـ وصلتْ نفوسُهم إلى درجة الاطمئنانِ؛ فصارتْ مطمئنةً يُبْصِرُ صاحبُهَا ويسمعُ ويَشَمُّ ويذُوْقُ ويَلْمُسُ ويتخيَّلُ ويتوهَّمُ ويتعقّلُ بجميعِ ذرَّاتِ وجودِهِ، وحصل لهم المكاشفةُ والإيمانُ الشهوديُّ، وصُقِلَتْ ماديّاتُهم عن صدأ التباعدِ وعدمِ الميلِ إلى القُرْبِ، وسُدَّتْ طرقُ الرذائلِ ـ مثل الكِبْرِ وغيرِهِ ـ عنهم.

ولكنَّ طريقَ السَّيْرِ والسلوكِ لهم تِسْعَ عَشْرَةَ دائرةً فَقَطْ؛ أوّلُهَا دائرةُ خَلْقِ العالَمِ، ويقال لها: الدائرةُ الظُّلْمَانيةُ ودائرةُ الولايةِ الصُّغْرَى، وقياسُ تلكَ الدائرةِ مَعَ بَاقِي الدوائرِ كقياسِ الذَّرَّةِ مع هذه الدوائرِ، وسيجيءُ تحقيقُه في تحقيقِ الوِلاَية.

القسمُ الخامسُ: الأَنْبِيَاء ـ عليهم السلام ـ.

القسمُ السادسُ: الرُّسل ـ عليهم السلام ـ .

القسمُ السابعُ: أُولو العزم ـ عليهم السلام ـ وهم: محمدٌ ونوحٌ وإبراهيمُ ومُوْسَىٰ وعِيْسَى.

وٱعْلم بأنّ أفرَادَ الأَقسامِ السِتَّةِ السابقةِ كثيرةٌ، ومراتبَ وصول كلِّ قسمٍ بميزانِ أفرادِ ذلك القِسْمِ؛ كما هو مشهور: «الطرقُ إلى الخالقِ بِعَدَدِ أنفاسِ الخلائقِ».

ونحن نستطيع أن نقولَ: إن مراتبَ الأَنبياءِ فوقَ مراتبِ الأَولياءِ، ومراتبَ الرُّسُلِ فوقَ مراتبِ الأَنبياء، ومراتبَ أولي العَزْمِ فوقَ مراتبِ الرُّسُل ـ على كل منهم الصلاة والسلام ـ وترقياتُ وأَلْطَافُ وتجديداتِ كلِّ فردٍ من تلك المراتبِ أعلى من ترقياتِ وألطاف وتجديداتِ كلِّ فردٍ من الطبقةِ الأَدْنَى منها، لكنَّ كيفيتَها خفيةٌ حتى على الأَولياءِ، وليس غيرُهم قابلاً لفهمِهِ وٱستماعِهِ كما قال كُمَيْلُ بنُ زيادٍ عن حُجَّةِ الله إمامِ المتقينَ عليِّ بن أبي طالبِ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: لله تعالى أربعةُ أنواعٍ من العلم:

النوع الأول: على نَحْوٍ يَلزمُ أن يعلمَهُ كلُّ أحدٍ وأجازني في بيانِهِ وهو علمُ الشريعةِ الظاهرةِ.

النوع الثاني: أجازني أن أقوله لبعضِ الناس الخواصِّ وهو الطريقةُ.

وقال الإِمَامُ عليٌّ: رأيتُهُ ﷺ علَّمَه لأبي بكر وسلمانَ الفارسيِّ!!.

النوع الثالث: علَّمنيه ربي ولم يُجِزْني أن أقوله لأَحَدٍ إذ ليس لأَحدٍ قابليةُ معرفتِهِ، وهو النُّبوَّة والرِّسَالة وأُولو العزميةِ والخاتميةِ.

النوع الرابع: لم يعلِّمْهُ لأحدٍ ـ لا لي ولا لأَحدٍ غيري ـ إذ ليس لأَحدٍ قابليةُ معرفتِهِ سوى الله تعالى، وهو علمُ خواصِّ الأُلوهيةِ، ويقال له الغيبُ المطلقُ.

القسمُ الثامن: رُتْبَةُ خَاتِمَةِ المراتبِ، وهو خاصٌّ بذاتِ حضرةِ الرسولِ ﷺ، ودائرتُهُ أرفعُ من جميع الدوائرِ، وصارتْ جميعُ ماديّاتِهِ

مجرَّدَاتٍ[1] بحيثُ لم يكنْ له ظِلٌّ وعُرِجَ بجسده الشريفِ إلى السماواتِ العُلَى.

مسألةٌ: حقيقةُ الهدايةِ وأقسامُهَا:

الهدايةُ لها ثلاثةُ معانٍ:

الأوَّل: خَلْقُ وسائلِ تحصيلِ الحسناتِ؛ من الإيمان والعبادة وغيرهما.

الثاني: خَلْقُ ذاتِ الحسناتِ مما ذُكِرَ، والهدايةُ بهذين المعنيينِ مختصة بالله تعالى وحدَه؛ لأنه هو الخالقُ فَحَسْبُ.

الثالث: إرَاءَةُ طريق الحق؛ وهي بهذا المعنى تُسْنَدُ إلى الله والقرآنِ والنبيِّ والأَوْلِيَاءِ والعلماءِ.

وأقسامُ هدايةِ اللَّهِ غيرُ محصورةٍ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، لكنَّ أقسامَها العاليةَ ثمانيةٌ:

الأول: خَلْقُ المجرَّدَاتِ على نَحْوٍ تقتضي طباعُهَا معرفةَ اللَّهِ، ومحبَّتَهُ، والاستغراقَ في لذائذِ العِرْفَانِ، والنظرَ إلى جنَّةِ تجلِّيَاتِ الأَحديةِ، والاستضاءَةَ بأنوارِ القُدْسِيَّةِ الصَّمَدِيَّةِ.

الثاني: إخراجُ الذرَّاتِ الماديّةِ للبَشَرِ من صُلْبِ آدم ــ عليه السلام ــ وتعليقُ المجرَّدَاتِ بِهِنَّ، وتعليمُ مراتبِ الإنسانيةِ والعقائدِ الشرعيةِ بخطابِهِ

---

(١) هكذا في الأصل، ولعل كلمة «بحكم» قد سقطت؛ فيصير المعنى «بحكم المجردات» فقد قال المؤلف في كتابه «الألطاف الإلٰهية» ما نصه:

«... وحين المجاهدة، إن غلب المجردُ الماديَّ: أنفك المجرد عن إسارته بالمادي ويصير المادي مأسوراً محضاً، فيصير المادي في حكم المجرد، لكن لا يصير مجرداً محضاً، ويرتفع الغطاء: كلاً أوبعضاً، إلى أن يصير العبد بحيث يكون من مصاديق الحديث الصحيح: «فإذا أحببته كنت سمعه...» الحديث، فيتوهم ويتخيل ويتعقل ويحسّ بجميع أجزائه الظاهرة، ويصير قريباً من الله واصلاً إلى الله تعالى... وحصل أعلى هذه المرتبة لسيدنا محمد ﷺ في الدنيا، ومِن ثَمَّ قويت مشابهته للمجرد بحيث لم يكن له ظل وكان يرى من خلفه ولاينام قلبه» ا.هـ.

اللذيذِ القدسيِّ الإلهيِّ في زمانِ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وعهدُهُ معهم أن يطيعوه ويتباعدوا وينفِروا عن غيره.

الثالث: خَلْقُ عالمِ المشاهَدَةِ بنحوٍ مُبْدِعٍ ومنظَّمٍ بحيثُ صار مِرآةَ مطالعةِ جميعِ العقائدِ الدِّيْنيَّةِ الأَصليةِ والفرعيةِ، وينظرُ البَشَرُ من هذا المِنْظَارِ إلى أوامرِ اللّهِ وأَحْكَامِهِ ويستدلون به على جميعِ القوانينِ الشرعيةِ كما أمر القرآنُ العظيمُ بالتفكرِ والتأملِ في خَلْقِ السماواتِ والأَرْضِ والنجومِ والبَرِّ والبحرِ والرِّيْحِ والمَطَرِ والآفَاقِ والأَنْفُسِ؛ حتى يكون باعثاً لمعرفةِ المسائلِ الدينيّةِ، لذا قال ﷺ: «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة»[1]، وقال الشاعر الفارسيُّ ــ ما ترجمتُهُ ــ: «جميع أوارقِ الأَشجارِ عند الماهرِ دليلٌ مُفْصِحٌ بالرَّبِّ القَادِرِ»، ويأتي إن شاء الله في بيانِ حقيقةِ العلمِ تفصيلٌ وتمثيلٌ ما ذكرنا.

الرابع: إرسالُ الرُّسُلِ بالتعاقبِ والاستمرارِ، ويبلغ كلٌّ منهم القوانينَ المقرَّرَةَ في زمان ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ المؤَيَّدَةَ بمُشَاهَدَةِ الآفاقِ والأَنْفُسِ تبليغاً مكرَّراً وتذكرةً مفصَّلةً.

وبعد انْقراضِ النُّبوَّةِ صار العلماءُ والأَولياءُ خلفاءَهم في تبليغِ المسائلِ الدينيةِ.

الخامس: خَلْقُ القُوَى الداخليةِ، مثل الرُّوح النباتيِّ والحيوانيِّ وقُواهما. والعضلاتِ والمفاصِلِ والحواسِّ، والقُوَى المحرِّكةِ والمُدْرِكَةِ والمتعقِّلَةِ والمتخَيِّلَةِ والمتوهِّمَةِ وغيرِهَا.

السادس: المعونةُ بِستِّمائَةِ مَلَكٍ يُعاونونهُ في فعلِ الحسناتِ وتركِ السيِّئَاتِ، ويقال لهم: المُعَقِّبَاتُ؛ لأنه يتعاقبُ بعضُهم بعضاً في المعاونةِ، أي يعاونُهُ ثَلاَثُمائَةٍ منهم بالنَّهارِ وثلاثُمائَةٍ بالليل. وكما أنّ في فَيْلَقِ الْجُنْدِ يوجدُ

---

(١) ذكره الفاكهاني بلفظ «فكر ساعة...» وقال: إنه من كلام سري السقطي. ووَرَدَ عن ابن عباس وأبي الدرداء بلفظ «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة»، وفي «الفتح الكبير»: رواه أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة.

العقيدُ والمُلاَزِمُ والعَسْكَرُ؛ فكذا يوجد فيهم الأفضلُ والفاضلُ، فٱخْتِلاَفُ الرواياتِ في عددِهم مبنيٌّ على ما ذُكِرَ ــ أي: بعضُهم يروي الأفاضلَ فقط، وبعضُهم الفاضلَ، وبعضُهم الجميعَ ــ فلا ٱخْتلافَ حقيقةً.

السابع: إنّ أَمْرَ اللَّهِ تعالى ورِضَاه حاصلٌ في الحسناتِ، فيحضُّ الناسَ دائماً على فعلها ويعاونهم فيها؛ لكن لا بِعُنْوَانِ الإِجْبَار.

الثامن: إنّ العبدَ إذا توجَّهَ نَحْوَ الحسناتِ وصرفَ قُواه إليها وعَزَم على فعلها؛ قَدَّرَ اللَّهُ له الوصولَ إلى ما عَزَم عليه، ويقالُ لهذا الثامنِ: الإيصالُ والدَّلالةُ المُوْصِلَةُ والهدايةُ الإيصاليةُ.

فعلم مما ذكر: أنّ من فَعَلَ فعلاً حسناً، يجبُ أن يُسْنِدَهُ إلى اللَّهِ ويشكرَهُ عليه؛ لأنه بخلقه. وإذا فَعَلَ فعلاً قبيحاً يَنْسُبُه إلى ذاتِه فقطْ؛ لأنّ خَلْقَ اللَّهِ القبيحَ كان بواسطةِ توجُّهِ العبدِ إليه وَعَزْمِهِ على فعله، فإيجاد اللَّهِ له ليس بسببِ اللَّهِ فقطْ، بل بسبب ترجيح العبدِ وعَزْمِهِ على فعله فيكونُ هو مَذْمُوْمَاً مَلُوماً. قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، يعني: مع أنّ خالقَ الخير والشرِّ هو اللَّهُ، لكن لكونِ خَلْقِ الخير، محبوباً ومرضياً لديهِ حقيقٌ بأن يُنْسَبَ إليه فقطْ، وخَلْقُ الشرِّ لكونِه مبغوضاً عنده ــ لكن خلقه فقط لتوجُّه العبد إليه ــ حقيقٌ بأن يُنْسَبَ إلى نَفْس العبد فقطْ.

مسألةٌ: حقيقةُ العِلْمِ والإِدْرَاكِ:

يجب أن يُعْلَمَ أوّلاً أنّ الصورةَ ثلاثةُ أَقْسَام:

الأول: الصورةُ الأصليةُ؛ يعني: الحالة التي كان الشيءُ عليها في الخارجِ، مثلُ حلاوةِ العَسَلِ ولونُهُ وريحُهُ وصوتُهُ وقتَ الغَلَيَانِ ولِينُهُ.

الثاني: الصورةُ الظلِّيَّةُ الشبيهةُ بالماديِّ؛ يعني: حالة الشيءِ وقتَ وجودِهِ في الذِّهْنِ ــ أو إحدى قُواه ــ مطابقةً للصورةِ الأَصليةِ بعقيدتِهِ لكنْ بشرطِ أن يكونَ ذُو الصورةِ من المحسوساتِ، ووصولِ الصورةِ إلى الذِّهْن من طريقِ الحواسِّ.

الثالث: الصورةُ الظِّليةُ غيرُ الشبيهةِ بالمادّيات؛ وهي أيضاً الحالةُ الذِّهْنِيةُ لكن بشرط أن لا يكونَ ذُو الصورةِ من المحسوساتِ ولا تصلُ إليه من طريقِ الحواسِّ، مثلاً: إذا رأيتَ أحمدَ ببصرِكَ فالصورةُ الخارجيةُ لأَحْمَدَ هي الصورةُ الأَصْلِيةُ له، والصورة الواصلةُ منه إلى بصرِكَ صورةٌ ظِلّيةٌ شبيهةٌ بالماديّةِ، وإذا لم تره ببصرِكَ ولكنْ وُصِفَ لكَ بأوصافٍ؛ تحصلُ في ذهنِكَ صورةٌ ظِلّيةٌ غيرُ شبيهةٍ بالماديّةِ، لأنها لم تصل إلى ذِهْنِكَ من طريقِ الحواسِّ.

ويجب أن يُعْلَمَ ثانياً أن الإِدْرَاك له ثلاثةُ معانٍ:

الأَوّلُ: النَّيْلُ والوصولُ إلى الشيء.

الثاني: الهيئةُ الانبساطيةُ الملائمةُ، والانقباضيةُ غيرُ الملائمةِ، الحاصلةُ من الإِدْرَاكِ الأَوّلِ، ويقال له: اللّذةُ والأَلَمُ.

الثالثُ: العِلْمُ والتعقّلُ؛ فمثلاً إذا أَكَلْتَ العسلَ فوصلتْ حلاوتُهُ إلى ذائقتِكَ، يحصلُ لك انبساطٌ، ثم تعلمُ أنّ هذه الحلاوةَ والانبساطَ من العَسَلِ، فهذا هو التعقّلُ.

ويجب أنْ يُعْلَمَ ثالثاً أنّ الإِدْرَاك أربعةُ أقسامٍ:

الأَوّلُ: الإِحْسَاس؛ وهو عبارةٌ عن إدراكِ المحسوساتِ الظاهرة عندما تَلْمُسُ شيئاً ليّناً أو تسمعُ صوتاً أو تذوقُ حلاوةً أو تَشَمُّ ريحاً؛ فتصلُ ـ فوراً ـ الصورةُ الأَصليةُ لليّنِ إلى لاَمِسَةِ يدِك، والصورةُ الأَصليةُ للصوتِ إلى سامعتِكَ، والصورةُ الأَصليةُ للحَلاَوَةِ إلى ذائقتِكَ، والصورةُ الأَصليةُ للرِّيحِ إلى شامّتِكَ.

وإذا نظرتَ إلى صورةِ شخصٍ ببصرِكَ تحصلُ صورتُهُ الشبيهةُ بالماديّةِ في باصرتِك، فلا تصلُ الصورةُ الأَصليةُ إلى الباصرة[1]، ولكن في الأَرْبَعَةِ الأُخرى تصلُ الصورةُ الأَصليةُ من الأَشياءِ إليها كما هو معلومٌ بالبَدَاهَةِ الحسيّةِ والفِطْرِيةِ.

---

(١) أي الذي يدخل إلى الباصرة ليس عين المبصر ولكن ظلّه.

الثاني: التخيل؛ وهو عبارةٌ عن إدراك الحسِّ المشتَرَكِ الصورَ المحسوسةَ الموجودةَ في خزينةِ الخيال؛ فمثلاً إذا رأيتَ شخصاً سابقاً ثم بعدَ مدةٍ تفكّرتَ فيه فهذا هو التخيّلُ.

الثالثُ: التوهم؛ وهو عبارةٌ عن إدراكِ المعاني الجُزْئيةِ إمّا بالذاتِ أو بواسطةِ الحافظةِ كما حين غفلة الواهمة عنه وبقائه في الحافظة، مثلُ إدراكِ الجوعِ والعَطَشِ.

الرابعُ: التعقل؛ وهو عبارةٌ عن إدراكِ المجرَّدَاتِ ـ مثلُ اللَّهِ تعالى والرُّوحِ ـ وعن إدراكِ الماديّاتِ غيرِ المحسوسةِ ـ مثلُ إدراكِ الجنَّةِ وإدراك زيدٍ قبلَ رؤيتهما ـ وعن إدراك المعدوماتِ والممتنِعَاتِ ـ مثلُ إدراكِ جبل ذهب ولا شيء.

ويجب أنْ يُعْلَمَ رابعاً أن القُوى الظاهرةَ والباطنةَ والرُّوحَ المجرَّدَ والنفسَ الإنسانيةَ الظاهرة ـ كلَّها ـ بمنزلةِ المرَايَا المتقابلةِ؛ فأيُّ صورةٍ وجِدَتْ في إحداها توجدُ في الأُخرى، مثلاً: إذا وصل أَصليُّ الحُلْو إلى ذائقتِكَ وضَعُفَ جانبُ ماديتِهِ في الجملة، تصلُ صورتُهُ الظِّليةُ إلى الحسِّ المشتَرَكِ ويَضْعُفُ جانبُ ماديتِهِ أكثرَ مما كان في الذائقة ثم تصلُ هذه الظِّليةُ إلى المتخَيِّلةِ مع نهايةِ ضَعْفِ جانبِ ماديتِهِ، ثم تصلُ إلى العاقلةِ مع نظافةٍ وتجرّدٍ قليلٍ، ثم تصلُ إلى النفس الإنسانية الظاهرة الموجودةِ في مقدَّم الجبهةِ من الدِّمَاغِ مع نظافةٍ وتجرّدٍ أكثرَ من السابقِ، ثم تصلُ إلى الرُّوْحِ المجرَّدِ مع كمالِ لطافتِهِ وتجرّدِهِ بواسطةِ وجودِهِ في هذه الظروفِ الخمسةِ السابقة.

فعُلِمَ أن إدراكَ الرُّوْحِ المجرَّدِ للماديّاتِ مشروطٌ بوجودِهَا في إحدى الحواسِّ الخمسِ الظاهرةِ، ثم في الحسِّ المُشْتَرَكِ، ثم في المتصرِّفَةِ، ثم في العاقلةِ، ثم في النَّفْسِ الأَمَّارةِ، ثم في الرُّوحِ المجرَّدِ.

وعُلِمَ أن قولَ الحكماءِ: «إدراك المحسوسات بالحواسِّ» بمعنى: إدراك الصورةِ الأصليةِ أو الظِّليةِ الشبيهةِ بالماديَّاتِ؛ بها لا بالرُّوحِ المجرَّدِ. وقولَ

المتكلمين: «إنَّ الإدراكَ بالرُّوح» بمعنى: إدراكِ الصورةِ الظِّليةِ الشبيهةِ بالمجرَّدَاتِ بواسطةِ التصفيةِ في الظروفِ الخمسةِ؛ بالرُّوح المجرَّد.

ثم إذا غابتِ المحسوساتُ عن الحواسِّ ودخلتْ في الحسِّ المشتَرَكِ: تنزلُ الصورُ الشبيهةُ بالمجرَّدَاتِ من الرُّوحِ إلى العاقلةِ، ومنها إلى النَّفْسِ الأمَّارةِ، ومنها إلى المتصرِّفَةِ، ومنها إلى الحسِّ المشتَرَكِ، ومنه إلى الحاسّةِ المخصوصةِ به.

فعُلِمَ أنَّ في وقتِ الإِحْسَاسِ الإِدْرَاكَ متصاعدٌ، وفي وقتِ التخيّلِ متنازلٌ؛ مثلاً: في وقتِ غَلَيَانِ العسلِ إذا أكلتَهُ فإنّ صوتَ الغَلَيَانِ يصلُ إلى سامعتِكَ، وحلاوتَهُ تصلُ إلى ذَائِقتِكَ، ولِيْنَهُ يصل إلى لاَمِسَتِكَ، ولونَهُ يصل إلى باصرتِكَ، وريحهُ يصلُ إلى شَامَّتِكَ، وظلُّ كلٍّ منها يصلُ إلى الحسِّ المشتَرَكِ والمتصرِّفَةِ والعاقِلَةِ والنَّفْسِ الأَمَّارَةِ والرُّوحِ المجرَّدِ بالتصاعُدِ. ويبقى في ما ذكر[1].

ثم بعد يومين إذا تفكَّرْتَ فيه يَرْجِعُ من الرُّوْحِ المجرَّدِ إلى النَّفْسِ الأَمَّارة ومنها إلى العاقلةِ ومنها إلى المتصرِّفةِ ومنها إلى الحسِّ المشتَرَك، ويُؤْمَرُ بِهِ أَنْ يُرْسِلَ اللونَ إلى الباصرةِ، والرِّيْحَ إلى الشامَّةِ، والصوتَ إلى السامِعَةِ، والحَلاَوَةَ إلى الذائِقَةِ، واللينَ إلى اللاَّمِسَةِ.

ولهذا: إذا تفكَّرتَ في حُموضة ما ذُقْتَ ـ سابقاً ـ يحصلُ الماءُ في فَمِكَ كما في وقتِ وجودِ أصليِّ الحمُوضَةِ فيه، وإذا تفكّرتَ في غَلَيَانِ العَسَلِ تتوهّمُ أن الصوتَ موجودٌ بالفعلِ في سامعتِكَ، وكذلك باقي المحسوسات!.

ويَلْزَمُ أَنْ يُعْلَمَ أنّ للحيواناتِ إحساساً وتخيُّلاً وتوهُّماً؛ لأنها تكونُ بالحواسِّ الظاهرةِ والباطنةِ وهي كائنةٌ للحيواناتِ، ولكنْ لها تعقُّلُ وظيفةِ النَّفْسِ الإنسانية الظاهرة والرُّوْحِ المجرَّدِ، وهذه عقيدةُ الحكماءِ وبعضِ المتكلمين.

(١) أي في الحس المشترك والمتصرفة والعاقلة والنفس الأمارة والروح المجرد.

وأما مذهبُ الصوفيةِ والمشائيةِ[1] ومحققي المتكلمين؛ فهو: أنّ جميعَ الحيواناتِ، بل جميعُ ذرّاتِ الموجوداتِ من الجماداتِ وغيرِها لها رُوحٌ مجرّدٌ وتعقّلٌ، والآياتُ الكثيرةُ والأحاديث الصحيحةُ ظاهرةٌ بل صريحةٌ في تأييدِ مذهبهم كما قال تعالى: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] يعني: صيّرنا عالمين ومتكلمين مَنْ صيّر جميع الأشياءِ عالمةً ومتكلمةً وقال جل وعز: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ١] يعني: يسبحُ الله جميعُ ما في العالَمِ العُلْويِّ والسُّفليِّ، وحكايةُ مُباحَثةِ حَضْرَةِ سليمانَ مع النملة والهدهد، وآيةُ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦] وآيةُ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨] تشهدان على ما ذكرنا.

قال المولى الرُّوميُّ في ديوانه:

آنچه حق آموخت مرزنبوررا　　　آن نباشد شير را وگور را

خانه سازدپراز حلو اي نو　　　حق براوان علم رابگشاده در

يعني: إنّ اللّهَ علّم النملَ شيئاً ليس للأسدِ ولا للنَّمِرِ؛ ليهيءَ بيتاً مملوءاً من الحَلْوَى الرَّطْبَةِ، ذلك علّمَهُ الرَّبُّ وفتح له بابَه.

وقال السَّعْدُ الشيرازيُّ: «يُغَنّي البُلْبُلُ في الرياض بتسبيحهِ، ولكلِّ شَوْكٍ لسانٌ للتسبيحِ».

وإني أعتقدُ أن بقاءَ كلِّ شيءٍ ووجودَه مشروطٌ بذكرِ الرَّبِّ؛ فأيُّ شيءٍ لم يَذْكُرِ اللّهَ، يدخلُ في حيِّزِ العدمِ وعَرْصَةِ الفَناءِ، ومعلومٌ أن الذِّكْرَ بلا وجودٍ مجرَّدٍ ممتنعٌ عادةً ولا يمكنُ حصولُه؛ فَلَزِمَ أَنْ يكونَ لكلِّ شيءٍ مجرَّدٌ يستطيعُ الذِّكْرَ بوسيلتِهِ، ولكنَّ هذا الذِّكْرَ المنوطَ بالوجودِ غيرُ اختياريٍّ وليس بمدارِ

(١) المشاؤون (في اليونانية معناها ما ينجز أو الإنجاز أثناء السير). وهم أتباع أرسطو، وقد اشتق الاسم من حقيقة أنه في مدرسة أرسطو الفلسفية (اللوقيوم) ــ التي تأسست في أثينا عام ٣٣٥ ق.م. ــ كان التعليم يجري عادة أثناء السير.

للثوابِ وجوداً وللعقاب عدماً.

فعلم أنّ ذرّاتِ الكافرِ ذاكرةٌ دائماً ولا علم له به، وليس له ذكرٌ ٱختياريٌّ يكون مداراً للثوابِ ورفع العقابِ؛ فلذا يعذب.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥]، يشير إلى ما قلنا، ومعنى الآية: أنّ جميعَ مَنْ في السماوات والأرضِ ينحني ويذكرُ اللّهَ ٱختياراً ــ كما أنّ المسلمين يعبدونه ٱختياراً ــ أو ٱضطراراً ــ كما أنّ ذرّاتِ المسلمِ والكافرِ والجمادِ ــ وغيرِهِ تذكر اللّهَ لأجلِ وجودها وبقائها وليس لهم به علم، وهكذا ظِلُّهم في الصباحِ والمساءِ يذكرُ اللّهَ، حتى يمكنُ أن يُقالَ: إنّ التعقُّلَ للحيواناتِ بديهيٌّ؛ لأن الظِّبَاءَ والمَعْزَ ــ مثلاً ــ ما رَأَتْ جميعَ الذئاب، بل يوجد منها من لم يرَ ذئباً قطُّ، ومع ذلك إذا رأَتْ ذئباً تَفِرُّ منه، وهذا دليلٌ على أنّها تعلمُ أنَّ كلَّ ذئبٍ عدوٌّ لها، وهذه قضيةٌ كليةٌ وإدراكها تعقّلٌ، ولا تستطيع أن تقول إنها تُدْرِكُ عداوته بالواهمَةِ؛ لأنّ ذلك مشروطٌ برؤيةِ آثارِ عداوته مثلِ هجومِهِ عليها، مع أن المَاعِزَ إذا رَأَى ذئباً بعيداً واقفاً يَفِرُّ منه وإنْ لَمْ يره الذئبُ؛ فعلم أنَّ كلَّ شيءٍ ــ خصوصاً الحيوان ــ له تعقّلٌ، لكنَّ دائرةَ تَعقّلِهِ ليستْ واسعةً سَعَةَ دائرةِ تعقلِ المكلَّفينَ، ولهذا لم يكن له تكليف وليس له صنائعُ مثلُ صنائعِ البَشَر.

ويلزم أن يُعْلَمَ: أنّ حصولَ كلِّ علمٍ يحتاج إلى ظرفٍ يكونُ محلاً لصورتِهِ ــ ويقال له: المُرْتَسَمُ فيه ــ ويحتاج إلى عالمٍ به، كما يحتاجُ لبقائِهِ إلى مَخْزَنٍ وحافظٍ حتى لا يُنْسَى.

فعالِمُ الإدراكات الأربعةِ: أصلُ النفسِ الإنسانية الظاهرة، والرُّوْحُ المجرَّدُ؛ وظَرْفُ الإحساس: الحواسُّ الظاهرةُ؛ وظَرْفُ التخيّلِ: الحسُّ المُشْتَرَكُ؛ وظَرْفُ التوهّم: الواهمة؛ وظَرْفُ التعقّلِ: ذات النفسِ الإنسانية الظاهرة، والرُّوح المجرَّدُ؛ ومَخْزَنُ الإحْسَاسِ والتخيّلِ: الحسُّ المشتَرَكُ، وحافظتُهُ: خزينةُ الخيالِ؛ ومَخْزَنُ التوهّمِ: الواهمةُ، وحافظتُهَا: القوة

الحافظة؛ والمَخزَنُ والحافِظُ للتعقّلِ: عالمُ المِثَالِ، وهو عالمٌ برزخيٌّ بين عالمِ الأمر وعالمِ الخَلْقِ، ليس بكثافةِ الماديّاتِ ولا بلطافةِ المجرَّدَاتِ، وتوجدُ فيه الصورةُ الظِّلّيةُ لجميعِ الأشياءِ. وجميع الصوفية ومحقّقو الحكماءِ والمتكلمينَ قَبِلُوا ذلك، وقال الشيخ ابنُ حَجَرٍ في «فتاويه الحديثية»: تشير إليهُ آيةُ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝﴾ [مريم: ١٧] ولكنَّ جمهورَ المِلَلِ يَزْعُمونَ أنه اللوحُ المحفوظُ أو علمُ الله، وجمهور الحكماءِ يظنونه العقولَ العشرةَ.

فوجودُ المخزنِ والحافظِ للتعقّلِ متفقٌ عليه، ولكنِ اخْتُلِفَ في اسمِهِ وحقيقتِهِ، ولفظُ: ﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ و: ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ في القرآنِ عبارةٌ عن عالمِ المِثَال أو عن علمِ اللّه.

وإذا لم تحصل صورةٌ عندك قطٌّ، فعدمُ حضورِهَا جهلٌ، وإذا حضرت ولكنْ لم تصلْ إلى المَخْزَنِ، أو وصلتْ ولكنْ ما حَفِظَتْهَا الحافظةُ، أو حضرتْ عندها لكنَّ العَالِمَ ما قَبِلَها، أو قَبِلَها الثلاثةُ[1] ولكنْ أهملوها: ففي جميع ما ذُكِرَ يحصلُ النِّسْيَانُ؛ فلذا يحتاج الشخصُ بعد النِّسْيَانِ إلى كسبٍ جديدٍ، ولكن إذا لم يُهْمِلْهَا الثلاثةُ بل أهملها اثنانِ، أو واحدٌ وأبقاها الآخرُ: يحصلُ السَّهْوُ؛ فلذا لا يحتاجُ إلى كسبٍ جديدٍ لأنّ الذي لم يُهْمِلْهَا يعطيها بعدَ التأمُّلِ إلى الذي غَفَلَ عنها فيتذكّرُهَا بدون كسبٍ جديدٍ، وإذا أخذها كلُّهم ولم يُهْمِلْهَا أحدٌ منهم: فأيُّ وقتٍ تريد إحضارَهَا فهي حاضرةٌ.

مسألةٌ: تعريفُ العِلْم

يُعْلَمُ مما مرّ أن العلم عبارة عن حلول صورة الشيء في الذهن، والجهل عبارة عن عدم حلولها فيه، والنسيان عبارة عن زوالها عن الخازنة والحافظة والمدركة، والسهو عبارة عن زوالها عن اثنين أو واحد منها فقط وبقائها في الآخَر أو الآخَرَين.

---

(١) الثلاثة أي: المخزن والحافظة والعالِم.

فعلى ما ذُكِرَ يُعلم أنَّ للعلم معنيين:

أحدهما: اسميٌّ ـــ ويقال له بالفارسية: (دانائي) ـــ وهو صفةٌ نورانيةٌ سارية في جميع ذرَّات ماديَّات البشر ومجرَّداتهم؛ يستطيع بواسطتها أن يُحِسَّ ويتخيَّلَ ويتوهَّمَ ويتعقَّل، وهي باقيةٌ لديهِ من حينِ الجنين إلى حين الموتِ ولو بتجدُّدِ الأمثال، كما فصَّلناه في بيان العقل.

ثانيهما: حدثيٌّ ـــ ويقال له بالفارسية: (دانش ودانستن ودانا بودن) ـــ وهو عينُ الصورةِ المحسوسةِ والمتخيَّلة والمتوهَّمة والمتعقَّلة في الذهن.

والعلمُ الحَدَثِيُّ إذا تعلَّق بالجملةِ الخبريةِ يقال له بالعربية: التصديقُ والإيمانُ والإذعانُ، وبالفارسية: (كرويدن وباور كردن)، وإذا تعلق بغير ما ذُكِرَ يقال له بالعربية: التصورُ، وبالفارسية: (دانش)؛ وكلٌّ من التصور والتصديق إذا كانا ظاهرين غيرَ محتاجين إلى النظر؛ هما من قسم الضروريِّ والبديهيِّ، وإذا احتاجا ـــ أو أحدُهُما ـــ إليه؛ فنظريٌّ.

والضروري ستة أقسام:

الأول: الأوَّليات؛ وهي لا تحتاج إلى شيءٍ، كالواحد نصف الاثنين.

الثاني: الحسيَّات؛ وهي عبارةٌ عن المحسوسات الظاهرة، ومحسوساتِ الحِسّ المشترك، ومحسوساتِ الواهِمَةِ؛ مثل: النارُ حارةٌ ـــ سواءٌ في وقت مسّ النار أو بعده ـــ وأنا جائعٌ.

الثالث: المجرَّبات؛ مثل: السَّقَمُونيَاء مُسَهِّلٌ.

الرابع: المتواترات؛ مثل: مكَّةُ موجودةٌ.

الخامس: الفِطْرِيّات؛ مثل: الأَربعةُ زوجٌ.

السادس: الحَدْسِيَّات؛ كما إذا رأيت دُخَاناً في النهار فتعلم أن هناك ناراً.

ففي أول الأمر ـــ يعني: قبل حصول مَقام الولاية ـــ تكون الوسائل الأُولى

لإدراك الأشياء: إحساسَ الجزئيات، على أنّ مراتب علم كلِّ شيءٍ أربعةٌ: العقلُ الهَيُولاَنيُّ، والعقلُ بالمَلَكَةِ، والعقلُ بالفعل، والعقلُ المستفاد.

وأشار إلى هاتين المسألتين قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾ [النحل: ٧٨]، يعني: أخرجكم الله من بطون أمهاتكم في حالة لا تعلمون شيئاً لكن أعطاكم الحواسَّ خصوصاً من بينها السمعَ والأبصارَ المُهِمَّيْنِ في إدراك المسائل الدينية، والروحَ؛ حتى تدركوا الجزئياتِ بواسطة الحواسِّ وبواسطة الإحساس، وتدركوا الكلياتِ المشتركةَ والمباينةَ بالروح، وتجعلوا الكلياتِ المشتركة جزءَ تعريفٍ وقضايا موجِبَةً، والمبايناتِ جزءَ قضايا سالبةٍ، وبوسيلة تلك القضايا تُشَكَّل الأدلةُ والأقيسةُ، وتُعْلَمُ من هذه الدلائلِ والأقيسةِ الأمورُ غيرُ المحسوسةِ والنظرياتُ وجميعُ ما ذُكِرَ لأجلِ معرفةِ اللَّهِ، والحمدِ والشكرِ له؛

مثلاً: الطفل إذا خرج من بطن أُمه له ٱستعدادُ إدراكِ حرارةِ النار المخصوصة وجميع النار؛ لكن لا يعرفها بالفعل؛ فهذه الحالةُ يقال لها: **العقلُ الهَيُولاَنِيُّ**، يعني: الاستعدادَ المحضَ للمعرفة؛

وإذا لَمَسَ النار وصلت حرارتها إلى يده، ويقال لهذه الحالة: **العقلُ بالمَلَكَة**، يعني: حصل له وسيلة معرفة كلِّ نارٍ حارَّةٍ؛

وإذا مسَّهَا مراراً بحيث حصل له حالةٌ إذا رأى ناراً أَبْعَدَ يَدَهُ عنها، وفي بعضِ الأوقاتِ يَمَسُّهَا، فهذه الحالة يقال لها: **العقلُ بالفعل**، يعني: حصل له قوةُ ٱستحضارِ ما أدركه من المخزن؛ ولكن ما قويت قوةُ ٱستحضارِهِ بدليل أنه يَمَسُّهَا في بعضِ الأوقات؛

وإذا حصل له حالةٌ بحيث لا يَمَسُّ النارَ قطعاً، وكلُّ نارٍ حارَّةٍ صارت عندَه بمنزلةِ هذه النارِ الحارَّةِ؛ يقال لها: **العقلُ المُسْتَفَادُ**.

فالعقلُ الهَيُولاَنيُّ في كلِّ مسألةٍ ـــ جزئيةٍ أو كليةٍ، بديهيَّةٍ أو نظريّةٍ ـــ:

مجرّدُ ٱستعدادِ علم هذه المسألةِ.

والعقلُ بالمَلَكة ــ ويقال له: مَلَكة الاستنباطِ أيضاً ــ: هو حصول وسائل علم هذا الشيء مع ٱستعداد علمِهِ.

والعقلُ بالفعل: هو حصولُ علمهِ ولكنْ لم يُسْتَحْكَمْ ذلك العلم.

والعقل المُستفادُ: هو استحكامُ علمه.

وٱعلم أن وسيلةَ كلٍّ من تلك الأربعةِ: إحساس الجزئيات.

وتوضيحُ الآية الشريفة السابقة ــ إذا صيّرناها ميزاناً لعلم أيّ شيء ــ ملاحظةُ ما يُتْلَى عليك: أنّ الإنسان إذا أمعن النظر في هذا العالم؛ يرى ببصره أن كلَّ ما يخطر بالبالِ ــ أعمُّ من السماءِ والأرضِ والنَّجْمِ والماءِ والرِّيحِ والتُّرَابِ والحيوانِ والعَلَفِ والشَّجَرِ والبَشَرِ ــ كُلَّه متغيّرٌ ومتبدِّلٌ؛ سواءٌ أكان تبدلاً ذاتياً ــ مثلُ الموجودِ بعدَ العدمِ والمعدومِ بعدَ الوجودِ ــ أم صفاتياً ــ مثلُ التسويدِ بعدَ التبييضِ ــ أم مكانياً: ككون الشمسِ في المغربِ بعدَ كونِهَا في المشرق، أم أيَّ تغيّرٍ آخرَ.

وإذا رأى الأشياء متغيّرةً في مُدّةٍ مديدةٍ يحصل له علمٌ بأنّ كلَّ عالَمٍ متغيّرٌ، ويعلمُ أنّ التغيُّر لا يمكن بدون المُغَيِّر؛ فيعلم أنّ كلَّ متغيِّرٍ يلزم أنْ يكون له مغيِّرٌ كاملٌ ــ لا ناقصٌ ــ وهو ذاتُ الله تعالى وصفاتُهُ؛ لأنّ جميعَ المتغيِّرَاتِ في قبضتِهِ، وهو المالكُ على الإطْلاق.

وهذا المغيّرُ ــ لكونِهِ كاملاً ــ يجب أن يكونَ واجباً، وقديماً، وواحداً، وغنيّاً مطلقاً، وعالِماً، وحيًّا، وبصيراً، ومريداً، وقدّاراً، ومتكلِّماً، وسميعاً؛ لأنّ أضدادَها نقصٌ، والناقصُ متغيّرٌ بتغير من النقص إلى الكمالِ، فليس له ٱستعدادُ التغيير الكُلِّيّ؛ فيلزم أن لا يكونَ من جنسِ المتغيِّرَاتِ. فليس الله تعالى جسماً ولا عَرَضَاً، وظهر أنه بواسطة العلم وإدراكِ تغيراتِ جزئياتِ العالم، عُلِمَ اللّهُ مع جميع صفاتِهِ، وعلم أنه مُنْعِمٌ وخالقٌ على الإطْلاق، ونِعَمُهُ جسميةٌ

وروحية ومادِيّةٌ، وله قوانينُ في التصرفِ في تلك النِّعَم إلا أنّ نظَرنا قاصرٌ عن إدراكها؛ فيلزم علينا أن نأخذهَا منه تعالى حتى نستطيعَ أن نشكر نِعَمَهُ الجسمية بالجسم، والروحيةَ بالرُّوح، والثروتيةَ بالثروةِ.

وبما أننا لا نقدر جميعاً أنْ نأخذَها منه؛ لذا اُختار سبحانه جماعةً صادقةً غيرَ مُتَّهَمَةٍ، وجعلهم رابطةً بينه وبيننا[1]؛ فيأخذون القوانينَ منه ويعلموننا إياها، لأنهم كما لهم عَلاَقَةٌ بنا لهم عَلاَقَة به؛ فثبت بهذا إرسالُ الرُّسل، فيلزم علينا أن نقبل أقوالَهم ونصدّق في جميعها ونؤمنَ بها.

فعلم أنّ جميعَ المسائلِ الأَصلية والفرعية الدينية: تُسْتفَاد بمرَّة أو مراتٍ، من تكرار مشاهدة الجزئياتِ المتغيّرةِ، ولكنَّ كيفيةَ وقوعِ المسائلِ السمعيةِ ـ كالصلاة والصوم وغيرهما ـ يلزم أن تؤخذَ من لسانِ رسولٍ علَّمه ربُّهُ إياها، والبيانُ الإلهيُّ أَلْمَحَ إلى هذا وذاك في الآية الشريفةِ السابقةِ؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ [النحل: ٧٨] إشارةٌ إلى المسائل السمعية، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [النحل: ٧٨] إشارةٌ إلى المسائل العقلية.

هذا، وقد كتبنا ما كتبنا للعامة، وأما الخواص: فإذا أمعنوا النظر اُستطاعوا أن يستفيدوا جميعَ جزئياتِ وكلّياتِ المسائلِ الدينية من المصنوعات، وأيُّ شخصٍ تدبَّر وجعلَ ما قلناه ميزاناً لنفسه؛ يصل إلى تحصيلِ مطالبهِ سريعاً وبدقةٍ، ومَنْ كان طالباً لمعرفةِ الحقيقةِ ـ وحقيقةُ العلمِ: معرفةٌ كاملةٌ ـ فعليه بمطالعة كتابنا «حقيقة البشر».

---

(١) قال الشيخ زاده في حاشيته على القاضي البيضاوي في معرض تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾:
«توسيط الواسطة يختلف على حسَب اختلاف حال المستفيض، يعني: أن معاملته تعالى في إفاضة الكمالات والمعارف على خلقه إنما هي بحسب اُستعداداتهم، فمن كان مستعداً لاستفاضتها بلا واسطة يفيض عليه بنفسه بلا واسطة ملك، ومن كان لا يقبلها إلا ممن كان من جنسه يفيض عليه بواسطة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام..» إ.هـ.

مسألةٌ: حقيقةُ جهاد النفس:

اعلم أنّ جسمَ البشرِ مشابهٌ لمنطقه، بل عالمٌ واسعٌ؛ فعضلاتُهُ وعروقُهُ وأوصافه حارسونَ وخَدَمٌ، وروحُهُ الحيوانيُّ والنبتيُّ وقوّتهما أربابٌ وآمرٌ وحاكمٌ في تلك المملكة الواسعة، ويمكن أن تكون تلك المملكةُ محلَّ صلاحٍ أو فسادٍ، وروحه المجرَّد مَلِكٌ مُسْلِمٌ، محلُّ حكومتهِ في الطَّرَف الأيمن، ووزيرُهُ الأعظمُ القلبُ ومحلُّ حكومتهِ في الطَّرَف الأيسر، القوّة العاقلةُ الباطنةُ آمرُ الجيش، والسرُّ والأخفى وزراؤه الباقون، وثلاثُمِائة وخمسةٌ وخمسونَ لطيفةً ربّانيةً صغيرةً مجرَّدةً، كلٌّ واحدة منها متعلقةٌ بعصبٍ من الأعصاب الرئيسية في تلك المملكةِ، وهي جنود الملِك. ويعاونه ـ أيضاً ـ سِتُّمِائةٍ من الملائكة، وهي ملائكةٌ مُعِينَةٌ هادِيةٌ مُغِيْثَةٌ محافظةٌ لقوّاته، وينصره الإمداد الإلهي ويدفع أعداءه، وتوجُّهاتُ الرُّوح المحمديِّ ﷺ، وسائرِ أرواحِ الأولياءِ تُعِيْنُهُ وتُغِيْثُهُ.

والنفس الإنسانية الظاهرة كافرة ومحلُّ سلطتها في مُقدَّم الدِّماغ كما قال تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق: ١٦]، والشيطانُ وزيرها الأعظَمُ ومحلُّ سلطتِهِ في نُقْطةِ حظِّ اللَّعِين؛ وهي نُقْطَةٌ سوداءُ في القلبِ الصنوبريِّ.

فالروح: يطلب الغلبةَ على جميعِ ذرَّات المملكةِ ويقرّبها من الله، والنفسُ ـ بالعكس ـ: تطلب الغلبةَ وتجعلَ جميعَ ذراتِهِ كافرةً مثلها، متسافلةً بعيدةً عن الله ومعرفتِهِ.

وإذا تأمَّل الشخصُ في نفسهِ وقتَ فعلِ المعصيةِ أوالطاعةِ: يرى ويعلم أنّ هاتين الفِرْقَتين تتنازعانِ بلا اختيارهِ بطريقِ حديثِ النفس؛ فيريد فعلَ الخيرِ ثم يرجعُ عنه بواسطة الكَسَلِ أو علّةٍ أُخرى.

ووظيفةُ كلٍّ من الشيطانِ والنفسِ: الدعوةُ والترغيبُ إلى القبيح لا الإجبارُ؛ كما قال تعالى حكايةً عنهما: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وظيفةُ الرُّوحِ والقلبِ: الترغيبُ والدَّعْوَةُ والإِجْبار على فعل الحسناتِ ـ ما دام الشخصُ لم يُعطِ زِمَام أمره بٱختيارِهِ إلى النَّفْسِ والشيطان ـ فإذا جعل الشخصُ ٱختيارَه تابعاً لاختيارِ الروحِ والقلبِ؛ فهما يشتغلانِ بتقويةِ جنودِهما ـ ويقال لهذا الحال: المرابطة ـ ويَقْسِم جنوده إلى كتائبَ وفيالقٍ، ويوقفهم في مواضعَ مناسبةٍ لهم حَسَبَ مصلحةِ الوقت ـ وهذا الحال يقال له: المشارطة ـ ثم يأمرُ بالهجوم الأكبر على جيشِ النفس ـ ويقال لهذه الحالة: الجهادُ الأكبرُ ـ ونداءُ كلٍّ واحدٍ من الجيشينِ إلى الآخرِ ومقابلتُهُ معه وثباتُه على المضاربة يقال له: المصابرةُ ـ وبقاءُ البشر في تلك الحالةِ على عدمِ قطعِ زِمام الأُمور من يد الروح يقال له: الصبرُ ـ ويجيء في تلك الحالة إمدادٌ إلهيٌّ يقال له: النصرُ؛ فينهزم جيشُ النفسِ ويقال له: الظَّفَرُ ـ ويتسلَّط على الوجودِ والهيكل ويقال له: الفتحُ ـ ونتيجةُ ما ذُكِرَ يقال له: الفوزُ وسعادةُ الدارين!!

وإذا ما وُفِّقَ الشخصُ في إتمام الجهاد، يصل إلى رتبة الولاية في آخر المرحلة ويستحكم إيمانه بحيث ـ وإن لم يحصل له المغيَّبات ـ إذا سَمِع علمَ غيبِ شخصٍ، يقبله فوراً ما لم يخالف الشريعة؛ ولهذا قال أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه: لو كُشِفَ الغِطَاءُ ما ٱزْددتُ يقيناً.

المبحث الثاني
البيان الإجمالي لحقيقة الطريقة وشروطها

حقيقة الطريقة: سلوك الطريق الباطن للشريعة سلوكاً يسهل على الإنسان الجهاد مع النفس، ويوصل الشخص بالآخرة إلى رتبة الولاية، ويرتفع بجميع ذرات وجوده إلى معرفةِ اللّه، والثباتِ على الإيمان، والاستغراقِ في أنوار التجليات، ورفع غِطَاءِ الغَفْلَةِ إلى الرُّتَبِ العُليا التي لا يصل إليها إلا بها؛ وتُصْقَلُ ماديّاتُه من كَثافةِ رذائلِ الجهل باللّهِ، وتسافلِ بُعْدِهِ عنه، وتصل تلك الماديّاتُ إليه تعالى كالمجرَّدات؛ فيعرفونه ولا يَغْفُلون عنه طَرْفَةَ عينٍ.

وحقيقةُ الحديثِ الشريفِ: «الإِحْسَانُ أن تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]: تُظْهِرُ السُّلوكَ، يعني أنه: في أوّل مراتبِ الطريقةِ يُدْرِكُ السالكُ أنّ اللَّهَ حاضرٌ وناظرٌ لأحوالِهِ في جميعِ الحركاتِ والسَّكناتِ واليَقَظَةِ والنَّومِ والخَلْوَةِ والجَلْوَةِ، ثم يصل إلى مقامٍ يُبْصِرُ بعينهِ في جميعِ الأَوقاتِ بدونِ فواتَ أنوارِ التوجُّهاتِ وأضواءِ التجلِّيَاتِ، وتستضيءُ ذاتُهُ مِنْ ذَاتِ اللَّهِ ويستشرقُ بِهِ!.

وكما قلنا سابقاً: سلوكُ الطريقةِ يَحْصُلُ بَعْدَ حصولِ مرتبةِ العَدَالَةِ؛ فالشخصُ الفاسقُ لا يصلُ إلى حقيقةِ السلوكِ، ولهذا فإن جميعَ الأَولياءِ ـ من أوّلِ هذا الدينِ إلى آخر القَرْنِ الخامس ـ كانوا يشترطون لمن أراد سلوكَ الطريقةِ: أَحَدَ عَشَرَ شَرْطاً، وأيُّ شخصٍ فُقِدَ فيه أَحَدُ هذه الشروطِ لا يُجيزونه

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنَّسائي عن عمر، ورواه البخاري ومسلم والإمام أحمد وابن ماجة عن أبي هريرة.

الدخولَ إلى تَكَايَاهُم، ومن هنا لم يكن سلوكُ الطريقةِ شائعاً بين الناسِ وكان أهلُ السلوكِ جِدَّ نادرين؛ والشروط هي:

الشرطُ الأوّل: العدالةُ وعدمُ الذَّنْبِ، لأنَّ المُذْنِبَ صارتْ مجرّداتُهُ ـ بواسطةِ الذنبِ ـ سافلةً، وماديّاتُهُ مظلمةً؛ فكيف له ٱستعدادُ مَحْرَمِيَّةِ الأَسْرَارِ الرَّبَانِيةِ، وكلما ٱزداد الذنبُ ٱزداد سوادُ القُوَى والجِسْمِ؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: ١٤]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١]، وكلما ٱزداد السوادُ توسَّع محلُّ الشيطانِ في القلبِ، ويصير ذلك القلبُ مُقِرّاً له، فتقوى أوامِرُهُ وَتَنْفُذُ، ويقالُ لهذا السوادِ: خُطُوَاتُ الشيطانِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البقرة: ١٦٨].

الشرط الثاني: عدمُ المال.

الشرط الثالث: عدمُ الجاهِ؛ يعني: ليس له شُغُلٌ يَرْجِعُ الناسُ بسببه إليه، كالتدريسِ، والفتوى، والقَضَاءِ، والإمارة، وذي الصنايعِ؛ لأنّ ذا المالِ والجاهِ ليس له مجال للمجاهدةِ والسلوكِ، كما قيل: إذا كنتُ أُصلي العشاءَ أُفِكّر أيَّ شيءٍ سيأكله أولادي في الصباح.

الشرط الرابع: الخَلْوَةُ؛ يعني: لا يدخلُ بين الناسِ حتى يستطيعَ تكميلَ الأَوْرَادِ والأذكار، ولا ينعكس بعكسياتِ الناس.

الشرط الخامس: أن يُوازِنَ جميعَ ما يرى ويفعل بميزانِ الفِقْهِ والكلام؛ حتى يتخلَّصَ من دسائسِ الشيطانِ والنفسِ الأَمَّارةِ، لأنَّ عداوتَهما وحَمْلَتَهُمَا تشتدّانِ على السالك وقت السلوك، ويخادعانهِ بأيِّ طريقٍ أمكنهما، فيصوّرَانِ القبائحَ في خياله بصور الحسنات، والحسنات بصور القبائح، أو يبدلانِ ويغيّرانِ له ذلك بطريق المكاشفة؛ كما قال الإمام البوصيري:

كَـمْ حَسَّنَـتْ لَـذَّةً للمَـرْءِ قـاتلـةً   من حيثُ لَمْ يدرِ أنّ السُّمَّ في الدَّسَمِ

ودفاعهما ومقاتلهما غيرُ ممكنةٍ بدونِ الموازنةِ بالشريعةِ الظَّاهرةِ وإلاّ ضلّ

السالكُ؛ قال حضرةُ غَوْثِ الثقلينِ عبدُ القادرِ الكَيلانيُّ ـ قُدِّسَ سِرُّهُ ـ: رأيتُ يوماً ـ وقتَ المراقبةِ ـ أنّ هذا العالمَ المُشَاهَدَ زُيِّن وعُطِّر ووُضِعَ سريرٌ قوائمهُ الأربعُ مرصَّعةٌ، إحداها في المشرقِ والأخرى في المغرب، وواحدةٌ في الشَّمال والأُخرى في الجَنُوب، وقد جلس عليه شخصٌ نورانيٌّ مَلِيْحٌ معطَّرٌ؛ فقال لي: يا عبدَ القادِر، أنا الرَّبُّ وأَحْلَلْتُ لك ما حَرَّمْتُ على الناس!! ففرِحْتُ وقُلْتُ في نفسي: رأيتُ الرَّبَّ ورفع عني التكاليفَ الشاقَّةَ!! وهكذا يُعلم أَنني شخصٌ فاضلٌ؛ لذا خُصِصْتُ بنعمةِ رؤيتِه ورفعِ التكاليف!! وكِدتُ أَنْ أَضِلَّ تماماً. فتدبَّرْتُ القرآنَ والشريعةَ وفيهما أَنّ اللَّهَ لَيس بجسمٍ وأنّ التكاليفَ ما رُفِعَتْ عن عاتقِ أشرفِ المخلوقاتِ محمدٍ ﷺ؛ فصيّرتُ حقيقةَ ظاهرِ الشريعةِ تُرْساً بيني وبينه وضربتُ بسوطِ الشريعةِ رَأْسَهُ ووجْهَهُ، فَضَحِكَ وَفَرَّ؛ فعلمت أنه الشيطانُ وقد غيّر صورتَهُ، وأنّ النورَ ظُلْمَةٌ والريحَ الطيّبَ نَتَنٌ فدلّسهما لمخادعتي. ولذا قال العُرَفَاء: يتصور المُرَائي أنه وصلَ إلى حضوره لكنْ في الحقيقةِ ليس له إلاّ التخيُّلُ.

والحاصل: أنّ السلوك إذا لم يكن موافقاً للشريعة ومقابَلاً بها يكون من دسائسِ النفسِ والشيطانِ، فإنهما يُحَسِّنَانِ القبائحَ وَيَكْسُوَانِهَا لباسَ الحسناتِ في عين السالكِ الجاهلِ، حتى يتمكنا آخر الأمر من تغييرِ عقائدِهِ وإضلالِهِ، وذلك مثلُ الإشراقيين من الحكماء، وبعضِ صوفيةِ الأعاجمِ والمرتاضين الهنودِ والسَّحَرَةِ والكَهَنَةِ.

يُرْوَىٰ أنَّ راهباً كافراً ـ في زمان الإمام جعفرٍ الصادقِ ـ كان يُخْبِرُ عن المغيَّباتِ ويَرَى جميعَ ما يَحْدُثُ في أقصى بقاع الأرْضِ، وكلُّ ما يُخْبِرُ به كان يقع حقيقةً؛ فذهب يوماً إلى زيارة الإمامِ جعفرٍ الصادقِ، فسأله الإمام: بأيِّ شيءٍ نِلْتَ هذا المَقَامَ، وتوجَّهَ إلى قلبِهِ، فقال: بمخالفةِ النَّفْسِ، فقال له: تفكّر في نفسك إن كانت مخالفةً لدخولك في سِلْكِ الإسلام فخالِفْهَا: فتدبّر ثم قال: نَعَمْ هي مخالفةٌ فأُخالفُهَا وأدخلُ الإسلامَ؛ فدخل ـ بحمدِ اللَّهِ ـ فيه وتغيّر حالهُ، فقال للإمام: غابتْ عني جميعُ المُغَيَّباتِ وقُطِعَ عني العلمُ بدخولي في

الإسلام! فقال له الإمام: إنَّ غَيْبَكَ كان ظِلِّيّاً من إلقاءاتِ نَفْسِكَ لإضْلالِكَ، فعلّمه طريقَ سلوكِ الطريقةِ ووصلَ بمعونتهِ وإمداد اللّهِ في مُدَّةٍ قليلةٍ إلى مَقَامِ الولايةِ والمُكَاشَفَةِ الحقيقيةِ وشكرَ نصيحةَ الإمام.

الشرط السادس: الاجتهاد؛ فيجب أن يَصِلَ السالكُ إلى مقامٍ في التبحر والمَهَارَةِ في العلوم يستطيع بواسطته أن يُخَرِّجَ المسائلَ الدينيةَ من الدلائلِ؛ لأنه يكون في خلوةٍ فيلزمُ أنْ يعرفَ حاجاتِهِ بدونِ التقليدِ في الأحكامِ الشرعيةِ الظاهرةِ والباطنةِ.

الشرط السابع: تمسُّكُهُ بمرشدٍ حقيقيٍّ ماهرٍ باهرٍ في فَنِّ الولاية، واصلٍ ـ على الأقلّ ـ إلى الولاية الصُّغْرَى الأصيلية كَحَدٍ أَدْنَى، ويلزمُ أن يكونَ تابعاً لمُرْشِدِهِ في جميعِ حركاتِ وَسَكَنَاتِ الطريقةِ، ولا يُخالفه نوماً ولا يَقَظَةً.

قال الإمام الغزَّاليُّ في «الإحياء» في بيان هذه الشروطِ نَقْلاً عن خواجه أبي علي الفارمدي: كنتُ يوماً في خدمة أُستاذي خواجه أبي القاسم الكرگاني فقلتُ له: رأيتُ الليلةَ في النومِ أنك أمرتَني بشيءٍ فقلتُ لك: لأيِّ شيءٍ أفعلُهُ؟ فترك أُستاذي الكلامَ معي شهراً ولا ينظرُ إليّ، فَتَعجَّبْتُ منه وغَضِبْتُ وقلتُ في نفسي: أيّ شيءٍ فعلتُهُ؛ حتى غَضِبَ مني أُستاذي؟! فَبَعْدَ مضيِّ مُدَّةٍ طلبني يوماً وقال لي: إنك إلى الآنَ مَا صِرْتَ لائقاً بالسيرِ والسلوكِ في هذا الطريق، وما صِرْتَ بعْدُ مطيعاً كاملاً، وإلا ما كنتَ رددتَّ أمري في النوم، لأنَّ الإِنَاءَ ينضح بما فيه، فَتُبْتُ عندَها وقبِلَنِي.

ولذا: قال الشيخ ابن حجر: من قال لشيخه لِمَ؟! لا يُفْلِحُ أبداً.

الشرط الثامن: قِلَّةُ الأَكل من الحلالِ، فكيف من الحرام؟!.

الشرط التاسع: قِلَّةُ النوم.

الشرط العاشر: قِلَّةُ الكلام؛ فلا يَتكلَّمُ إلاّ بِقَدْرِ الحاجةِ والحلال؛ لأن القَوْلَ والأَكْلَ والنومَ يَبْعَثُ في البَدَنِ الكَسَلَ والغَفْلَةَ عن الحقّ.

الشرط الحادي عشر: ٱستعداد السالك لسلوكِ الطريقة؛ لأنّ هذا الشُّغْلَ لَطيفٌ وشريفٌ يحتاج إلى الاستعداد الفِطْرِيِّ والوَهْبِيِّ، فيمكن أن يكون الشخصُ عالماً وسيّداً وعادلاً وفاضلاً، ولكن ليس له ٱستعداد السلوك كما هو مُجَرَّبٌ وقد رآه بعض الناس بأعينهم... ومع ذلك فقد قال الغزّاليُّ في «الإحياء» و«كيمياء السعادة»: يجب أن لا ييأسَ الشخصُ غيرُ المستعدِّ؛ لأنه وإن لم يصلْ إلى مقامِ المكاشفةِ والفُتُوحِ، ولكنّ المقصودَ الأَصليَّ ــ وهو محبّةُ اللّهِ ومحبَّةُ أحبابِهِ ومحبَّةُ الشريعةِ والطريقةِ والفوزُ بسعادةِ الدارين ــ يحصلُ له ويصلُ إلى الولاية الصُّغْرَى في وقت الموت.

وقال رجل: كنتُ مصاحباً لشخصٍ عَلَوِيٍّ نجيبٍ صالح عادلٍ من أهالي «طالش» في «بيارة» الشريفة، وكنا سالكين ولكنَّه لا يفهم شيئاً من مراسمِ الطريقةِ وليس له فتوح قطُّ، وشفّعني في خدمةِ خليفةِ اللّهِ الأَعظمِ المرشدِ الأَكبرِ شاه علاءِ الدِّيْنِ العثمانيِّ، ففصَّلْتُ أحواله في ساحة حضرةِ المُرْشِد فقال مجيباً: أنا لستُ بخائنٍ لأيِّ مخلوقٍ، خصوصاً من خرج من أصلاب الطاهراتِ من الحسنيين والحسينيين، ولكنْ ليس لهذا الشخصِ ٱستعدادُ الطريقةِ، فأمره بالأَورادِ والعباداتِ الظاهرة.

هذا؛ وبعد القرن الخامس، قال الأَولياء: الدِّيْنِ في ضَعْفٍ ونَقْصٍ وقد كَثُرَ الكُفْرُ والفِسْقُ والبِدْعَةُ والعكسيَّاتُ، فإذا مَشَيْنَا على طريقِ السلفِ ــ في الشروط المارَّة آنفاً ــ يضمحلُّ وجودُ هذه الطريقةِ تدريجياً فٱتفقوا على أنْ يُدْخِلُوا جميعَ المسلمين في حَلْقَةِ الطريقةِ بتوقُّع تصفيتِهم وتصقِيلهم؛ ببركةِ صُحْبَةِ الصالحين وهِمَّةِ المرشدين، ودخولِهم حَلْقَةَ الذِّكْرِ وحضورهم في المواقع المباركة؛ ليتخلَّصوا من صدأ العِصْيَان؛ فقسَّموا السالكَ أَربعةَ أَقسامٍ:

القسم الأَول: الصوفي؛ وهذا هو السالكُ وله الشروطُ السابقةُ بٱعتبارِ تحقُّقِ الفتُوح له.

القسم الثاني: المتصوف؛ يعني: عادلٌ يستحقُّ السلوك.

القسم الثالث: المُتَشَبِّه؛ يعني: الأشخاص الذين صُقِلوا إجمالاً، ويميِّزون بين الظُّلْمَةِ والبَرَكَةِ، وَحَصَلَ لهم رقَّةُ القلبِ وٱزدادتْ مراتبُ ديانتهم.

القسم الرابع: المُتَشَبِّهُ بالمُتَشَبِّهِ؛ ويعني: العاصي الداخل حديثاً في هذه الطريقةِ ويَلْبَسُ لِبَاسَهُمْ ولكنْ ليس له عَلَاقَةٌ بهم إلا الانتسابَ؛ فأغلبُ ــ بل مجدوعُ ــ الدراويشِ والصوفيةِ في هذا الزمان، من هذا القسم الرابع.

فالمرشدُ الحقيقيُّ بمنزلة الكِبْرِيْتِ الأَحمرِ، والصوفيُّ نادرٌ، والمتصوفُ قليلٌ، وفي جميعِ الممالك الإسلامية يمكن أن يوجد ثلاثةُ ــ أو أربعةُ ــ آلافٍ من المُتَشَبِّهين.

وإذا لوحظ بنظر الإنْصاف، يُعْلَمُ أنّ ما فعله المتأخرون عملٌ نافعٌ جداً كما أنه مُجَرَّبٌ، ورؤيَ أنّ القسمَ الرابعَ ــ أي المنتسب ــ يتحسَّنُ حالُهُ إلا البعضَ منهم، وغيرُ المنتسبِ لا يتحسَّنُ حالُهُ إلا القليلَ منهم.

وليس مقصودُ المتأخرين من هذا العملِ إنكارَ شرائطِ المتقدمين السابقين، بل هم أيضاً ٱشترطوا لدخولِ حقيقةِ الطريقةِ جميعَ شرائطهم إلاّ الاجتهادَ، وأيُّ شخصٍ لم توجدْ فيه الشرائطُ العَشَرَةُ لم يَحْسُبُوه من أهل الطريقة الحقيقة، بل يَعُدّونَه ويَحْسُبُوْنَه محبّاً ومنتسباً لهم، ومع هذا يقبلونه ويتوقعون بوسيلة ذلك الانتسابِ أنْ يكون موفَّقاً للتطهير من المعاصي ومُسْتَعِدّاً للدخول في الطريقة.

فعلى ما ذكر: لم يُتوقَّعْ في قَرْنٍ من القرون ــ حتى قرن السعادة ــ أن يكون كلُّ الناس من أهل الطريقة، ولا أن يكون جميعُ الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ من أهل الكشفِ والمكاشفة والفُتوح؛ لأنّ غالبَ الصحابةِ ليس لهم درجةُ معرفةِ العلوم الظاهرةِ ورتبةُ الاجتهاد، لذا لم يكنْ لأغلبهم علمُ مكاشفةٍ ومشاهدةٍ، فكان أهلُ الكَشفِ بينهم قليلين. ومع هذا: لو رأى أحدُهم مرةً ــ ولو للحظة ــ وجْهَ حضرةِ الرسول ﷺ كان ذلك الرائي أفضلَ من جميع الأولياء غيرِ الرائينَ لحضرتِه ﷺ. يعني: لو وُضِعَ جميعُ الأولياءِ في كِفَّةِ ميزانٍ وذلك

الرائي في الكِفَّةِ الأُخرى؛ كانت فضيلتُهُ أرجحَ من فضيلةِ الجميع، لأن أصلَ الفضيلةِ كثرةُ الثوابِ عند اللَّهِ والمحبوبيةُ عندَه، وأصحاب النبي ﷺ ــ بواسطةِ المجاهداتِ الجسميةِ والنفسيةِ وكمالِ الانقيادِ التامِّ والقربِ منه ورؤية حضرتِه ﷺ ــ كان ثوابُهم ومحبوبيتُهم أكْثَرَ من ثوابِ ومحبوبيةِ باقي الناس.

وللتوضيح والتمثيل ــ ولِلَّهِ المثلُ الأعلى ــ نكتب ما يلي إن شاء الله.

المقصود من المُكاشفةِ والوصولِ إلى مَقام الولايةِ الباطنيةِ: هو أن يكون الشخصُ مستعِداً للأُمور المعنويةِ والخِدْمَةِ في حضرة الحقِّ الذاتِ الأَقدسِ؛ فهم يُشَبَّهُون بخدّام السلاطين، ومحارمِ أسرارهم، والأَشياءِ المختصَّةِ بهم، وهم مرسِلُو رسائلهم، وأُمراءُ أُمورِهم.

وبديهي أنّ وزراءَ وأُمراءَ المملكةِ وعلماءَها وشيوخَها أفضلُ من غيرهم في الاحترام والنفوذِ والسَّعادةِ الدنيويةِ؛ فكذلك الأَصحاب الكرامُ خواصُّ وأعيانُ المملكةِ الرَّبانيةِ، لكنْ بعضُهم له نورٌ على نورٍ بواسطةِ فضيلةِ الاجتهاد والمُكاشفةِ بل القطبيةِ، فضَمُّوا هذا النورَ على النورِ السابق، وبهذا ثَبَتَ فضلُ بعضِهم على بعضٍ، وإلاّ فكلُّهم متساوون في شرفِ الصُّحْبَةِ لاستوائِهم في الوصول إلى هذه المرتبة، كما أن جميعَ المجذوبينَ والمُرَادِيْنَ وصلوا إلى مقام الولاية.

ويجب أنْ يُعلم أنّ الأَولياء حصروا مَنْبَعَ جريانِ الفيوضِ والبركاتِ والأَنوارِ إلى العالم في سِتِّ حقائقَ:

الأولى: الحقيقةُ المحمَّديّة.

الثانية: الحقيقةُ الفاطِميّة.

الثالثة: الحقيقةُ العَلَوِيّة.

الرابعة: الحقيقةُ الجيليّة.

الخامسة: الحقيقةُ المجدِّدِيّة.

السادسة: الحقيقةُ الرياسيّةُ المُطْلَقة.

يعني: كما أن مياهَ العيونِ تصل إلى الأرض البعيدةِ بواسطةِ الجداولِ، والماءُ ماءُ العين؛ لكنَّ تلك الجداولَ أوّلُ طريقِ فيوضِ الماءِ ووسيلتُه، كذلك السالكُ لا يستطيع بالذاتِ أن يأخذَ المعنوياتِ من الذات البحتِ؛ إذ إنّ المعنويات تصلُ أولاً إلى قلب حضرة الرسول ﷺ وصدرِهِ الشريفِ، ومنه إلى صدر ٱبنتهِ فاطمةَ الزهراءِ، ومنه إلى صدر الإمام عليٍّ زَوْجِهَا، ومنه إلى صدرِ القُطْبِ الگيلاني، ومنه إلى صدرِ المجدّدِ الثاني، ومنه إلى صدرِ غَوْثِ الزَّمانِ ورئيسِ أولياءِ الوقت، ومنه إلى صدرِ ولطائف باقي الناس.

وقد بحثنا مع سالكٍ مشتغلٍ بالمراقبةِ الذاتيةِ، يعني: يكتسبُ الفيوضاتِ من الذاتِ البحتِ، وفصَّلْتُ له هذا البحثَ؛ فأجابني بأنّ الشخصَ إذا وصل إلى المراقبةِ الذاتيةِ ليس له واسطةٌ إلا الذاتَ البحتَ. فقلت له: ٱشتبه الأمر عليك. وذكرتُ له مثالاً حتى يتبينَ ٱشتباهَه؛ فقلت له: لو وضعتَ سِتَّ صفحاتٍ من الزّجَاجِ الصافي ــ بعضَها على بعضٍ ــ بينك وبين الشمس، لكن في طَرَفٍ من الأَطرافِ ميّزتَ كلَّ واحدة عن الأُخرى بنُقْطَةٍ مغايرةٍ للأُخرى؛ فإذا كنت تنظر إلى الشمس من مكانٍ بعيدٍ عن النِّقَاطِ تَظُنُّ أنْ ليس بينك وبين الشمسِ فاصلٌ، لكنْ إذا نظرتَ من جهةِ النِّقَاطِ تَعْلَمُ بواسطتها أنَّ بينك وبين الشمسِ سِتَّ زُجَاجَاتٍ فاصلةٍ، فأنت مأمورٌ بأنْ لا تنظرَ إلى الحقائق السِّتِّ، وأنْ تنظرَ إلى الذاتِ البحتِ لحكمةٍ يعرفُهَا مُرْشِدُك؛ فلذا صِرْتَ مُشْتَبَهاً عليه، وبعد مُدَّةٍ سَأَلْتُ عنه فإذا بِهِ قد زال ٱشتباهُه.

فمقصودي من هذا التمثيلِ: أنّ الشخصَ ــ ولو وصل إلى مَقام الولايةِ الكبرى ــ إذا لم يوازنْ أعماله مع أَقوال السلفِ والشريعةِ يصير مُشْتَبَهاً عليه.

وقال الأَولياءُ ــ أيضاً ــ: في آخرِ الزَّمَانِ حالُ البشرِ لا يكونُ له ٱستعدادُ الغوثيةِ المطلقةِ والمَنْبَعِ السادسِ؛ فيكون حضرةُ الخَضِرِ غوثاً ومَنْبَعاً سادساً، واللّهُ شهيدٌ على أني مَا كتبتُ إلا ما عَلِمْتُ، فٱستنبطتُ من هذا القولِ ومن

بعض الأحاديث: أنّ المهديَّ يظهرُ ويصيرُ مَنْبَعَاً سادساً في آخرِ سنةِ ألفٍ وخَمْسِمِائةٍ من هجرةِ الرسولِ ﷺ واللّٰهُ أعلم بالسرائر.

مسألةٌ: الطريقة بالاكتسابِ لا بالوراثة:

مِن المتيقَّنِ أنّ الطريقةَ علمٌ نَفِيْسٌ مُبَارَكٌ شَرِيْفٌ، قاطعٌ للرذائلِ، ودافعٌ للمكرِ ودسائسِ النَّفْسِ الأَمَّارةِ، وقالعٌ لوسوسةِ الشيطان، وباعثٌ للوصول إلى الحقيقيةِ الإنسانية والخروجِ عن الحيوانيّةِ والبهيميّةِ، وسببٌ للوصول إلى الحقائق التي هي أشرفُ وأعلى من جميع العلوم الظاهريةِ، لكنَّ الوصولَ إليه مُشْكِلٌ مُتَعَسِّرٌ بل هو في هذا الزمان، شَرِّ الزمان ــ بدون جَذْبَاتٍ إجباريةٍ ربَّانيةٍ وتوفيق تامٍ وهدايةٍ إيصاليةٍ ــ : محالٌ ومُتَعَذِّرٌ.

فمثلاً: حصولُ مرادِ الطفلِ الصغيرِ ٱبنِ الراعي الأَصمِّ الأعمى الأَبْكمِ مشلولِ الرِّجْلِ واليدِ في رياسة جميعِ الكُرة الأَرضيّةِ وإن كان ممكناً ذاتاً غيرَ أنه محالٌ عادةً؛ إلا بمحضِ لطفِ الله، بأنْ يصيِّرَه بصيراً سامعاً ناطقاً سالمَ البُنْيَةِ، ويهيءَ له وسائلَ السلطنةِ الأَرضيةِ.

ففي هذا الزمان: الوصولُ إلى مرتبةِ الولايةِ كوصولِ الطفل المذكورِ إلى السلطنة الأَرضيةِ، لا كما قيل: لَبِسَ مُلْحِدٌ لِبَاسَ أَهْلِ التقوى وٱدّعَى أنه القطبُ؛ لأجلِ تحصيلِ الجاهِ والمال!!

وليس شرطَ هذا العلمِ: النَّسَبُ الفاطميُّ أوالقُرَشِيُّ، أو كونُهُ من أولاد الشيوخِ؛ أمّا عُلِمَ ــ بالتواترِ اليقينيِّ والتَّجْرِبَةِ القطعيّةِ في الأَمكنةِ المختلفةِ والأزمنةِ المتعدِّدَةِ ــ: أنّ غالبَ أَوْلاَدِ السَّادَاتِ العِظَامِ والأَوْلياءِ الكبارِ لم يصلوا إلى هذا المَقام، بل كثيرٌ من غيرهم وصلوا إليه بل ٱتصفوا بالقُطْبِيّةِ الكُبْرَى، ونُصِبَتْ أعلامُ إرشادهم في عُمْدَةِ أقطارِ العالمِ.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وقُلْ لهم: لاَ تَعتمِدُوا على قَرَابَةِ الرسول ﷺ: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾

[الحجرات: ١٣]، يعني: أكثرُكُمْ قُرْباً وحُبّاً لِلَّهِ أَعْبَدُكُمْ لَهُ.

ثم بعد نزولِ هذه الآيةِ الشريفةِ طلب الرسول ﷺ علياً وفاطمةَ والحسنينِ، وكان عمرُهُمَا سِتَّ وسبعَ سنواتٍ، وقال لهم بصورةِ الإنذارِ ما معناه: إذا لم تَتَّبعوا أوامرَ اللَّهِ ونواهيَه اْتباعاً لائقاً فلستُم بأولاَدِي وقومي وأنا بريء منكم؛ بل أَبناءُ وبناتُ ورجالُ ونساءُ الهنودِ والحبشيينَ المطيعينَ للشريعةِ هم أهلي وقَرَابتِي؛ فبكَوْا جميعاً، وقَبِلوا مجدَّداً دعوتَه وعاهدوه على أن يشتغلوا بالعِرْفَان والعبادات أكثرَ من ذي قَبْلٍ؛ فبذا وصلوا واْتصفوا بالمَقَامَاتِ العاليةِ المذكورةِ سابقاً، لا لقرابتِهم وقرشيَّتِهم وهاشميّتِهم.

أورد النوويُّ في أربعينه: «ومَنْ أبطأ بِهِ عَمَلُهُ لم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[1] ومعناه: أيُّ شخص أضعفه عملُه لا يقويه نَسَبُه، بل لَزِمَ على الشخصِ أن يصيرَ عَمَلُهُ سبباً لقربِهِ لا نَسَبُه.

ومعلوم ــ أيضاً ــ: أنّ حضرة الرسول ﷺ كما له صفةُ النبوَّةِ والرسالة، له الرياسةُ المطلقة في علم الظاهرِ والقُطْبيّةُ والسلطنةُ الدنيويةُ.

ومعلوم ــ أيضاً ــ: أنه إذا لم يشتغل واحدٌ من أهل بيته بتحصيلِ العلوم الظاهريةِ ولم يتحمَّلِ المشقةَ في تحصيلها ولم يراجع الأُستاذَ كالعادة ولم يقرإِ الدَّرْسَ ــ فمع قطع النظر عن أنه لا يكون عالِماً ــ لا يعرفُ كيفيةَ وضوئِهِ وصلاتِهِ، ومجرَّدُ كونِهِ سيّداً من آل البيتِ لا يجعلُهُ عالماً.

وكذلك إذا لم يحصِّلْ وسائلَ السلطنةِ لم يَصِرْ بمجرَّدِ كونِهِ اْبنَ رسول الله ﷺ مَلِكاً.

وإذا كان علمُ الطريقةِ ألطفَ وأشرفَ من علمِ الظاهرِ والسلطنةِ ــ ومع ذلك لم يَحْصُلا بمجرَّدِ النَّسَبِ ــ فأَنْ لا تَحْصُلَ هي به ــ أي: بمجرَّدِ النَّسَبِ ــ

(١) هو الحديث السادس والثلاثون من الأربعين النووية؛ والحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن عساكر في حديث أوله «من نفَّس عن مؤمن كربة...» الحديث، وفي لفظ لمسلم وابن عساكر «ومن بطّأ» بتشديد الطاء من غير ألف في أوله.

من باب الأَوْلَى، وإلاّ لَزِمَ أنْ يكونَ جميعُ أولاد الأَقطابِ والساداتِ أَقطاباً وسادةً، ولا يكونَ واحدٌ من غيرِهم قطباً ووليّاً وسيّداً.

ويبقى أنّ احترام أهلِ القرابةِ وأولادِ الصُّلَحَاءِ ورعايَةَ شؤونِهم واجبٌ على كلِّ مسلمٍ وفرضُ عينٍ؛ كما قال الرسول ﷺ: «إني تاركٌ فيكم ما إن تمسكتُم به لَنْ تَضِلُّوا بعدي ـ أحدُهُما أعظمُ من الآخرِ ـ كتابُ اللَّهِ حبلٌ ممدودٌ من السماءِ إلى الأَرْضِ، وعِتْرَتي أهلُ بيتي، ولن يتفرَّقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوضَ، فانظروا كيف تخلُفُوني فيهما»[1] فالرَّبُّ جَعَلَ الأَقرِبَاءَ رديفاً للقرآن، ولهذا أردفه النبيُّ ﷺ، وهذا غايةُ المدحِ لهم، والأحاديثُ الصحيحةُ في هذا المجالِ كثيرةٌ، وقد جمعها ابن حَجَرٍ في كتابِه «الصَّواعِق المُحْرِقة» ومراجعتُهَا سببٌ لزيادةِ محبةِ آل النبيِّ ﷺ وإنني بفضل الله تعالى من ابتداءِ تمييزي إلى الآنَ، ما مَدَدْتُ رجلي قطُّ لا في اليقظةِ ولا في النوم إلى واحدٍ من أقربائه، وفرضتُ على نفسي بِقَدْرِ الإمْكَانِ خدمتَهم.

هذا؛ وإذا اشتغل أولادُ الأَولياءِ والساداتِ بالطريقةِ ووصلوا إلى مقام الإرشاد، يكون إرشادُهُم أحكمَ وأفضلَ من إرشاد غيرِهم.

يُرْوَىٰ أنه دخل يوماً الإمامُ المُرْتَضَى سيّدُنَا عليُّ الرِّضَا[2] مع جماعةٍ من العلماءِ والأولياءِ السوقَ؛ فرأى فيه شخصاً أسودَ كَرِيهَ المنظرِ عجوزاً، ومعه ابْنُه الصغيرُ وكان في سنِّ السابعة، فقال له الإمام ـ بدون التفحُّصِ عن حاله ـ: أَلاَ تكونُ خادماً عندي؟ قال: بلى؛ فذهب بهما إلى بابه وكان حارسُ البَابِ السابقِ عالماً سيّداً، فعزلَهُ وجعلَ مكانَه الرجلَ الأَسودَ، فتعجَّبَ جميعُ أقاربِهِ وأحبابِهِ وتحيَّروا من صنيعهِ هذا، فسألوا الحارسَ الجديدَ عن مذهبه واسمِهِ ولسانِهِ ومكانِهِ فقال: مذهبي مجوسيٌّ[3]، ولساني فارسيٌّ، ومكاني كَرْخٌ، واسْمِي

(١) رواه الترمذي عن زيد بن أرقم.

(٢) هو الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم.

(٣) جاء في «وفيات الأعيان» لابن خلكان: «معروف بن فيروز (وقيل فيروزان) الكرخي: أحد =

فيروزٌ، وٱسْمُ وَلَدِي فيروزان؛ فٱجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم ظانِّيْنَ أن الإمام لم يطَّلع على حالهما ــ وإلاّ فكيف يضعُ شرفَ وكرامةَ أولادِ النبوَّةِ تحت سلطةِ مجوسيٍّ كافرٍ فارسيٍّ ــ وٱختاروا من بينهم رجلاً جسوراً لمراجعةِ الإمام في أَمْرِهِ، فأجابه الإمامُ: أنا صاحبُ التصرُّفِ في أهل بيتي، ومستقلٌّ ومختارٌ وعالمٌ بما فلعتُ! ثم بعدَ سبعةِ أيامٍ يأتي إليه الحارسُ المجوسيُّ مسلماً بعدَ أنْ أثَّرَ في قلبِهِ نورُ الإيْمان، فيلقِّنُهُ الإيمانَ والإسلاَم، ثم يأخذُ ٱبْنَهُ برضَاهُ فيغيِّرُ ٱسْمَهُ بـ: معروف، ويعلّمُه الأمورَ الدينيةَ ويدرِّسُهُ الشريعةَ والطريقةَ؛ ليصيرَ بعدَ زمنَ غير بعيدٍ: معروفاً الكَرْخِيَّ الذي قال في حقّه مولانا عبدُ الرحمن الجامي في كتابهِ «النفحات»: أجمع الأولياءُ أَنَّ أربعةً من الأولياءِ لهم التصرُّفُ التامُّ في حالِ المَمَاتِ كما في حالِ الحَيَاةِ، وهم: معروفٌ الكَرْخِيُّ، وعبدُ القادرِ الگيلانيُّ، وحياةُ بنُ قيسٍ الحرَّانِيُّ، وعقيلٌ المَنْبِجِيُّ.

وقال القطبُ الأكبرُ الشيخُ معروفٌ النودهي البرزنجيُّ في شرح منظومة كتابه «الفرائض»: إنّ آلَ وأولادَ حضرةِ الرسول ﷺ أَشخاصٌ يَصِلون إليه حَسَباً ونَسَباً، وأشرفُهُمْ الأولياءُ ثم العلماءُ ثم الساداتُ، وأيُّ شخصٍ له الصفاتُ الثلاثُ فهو نورٌ على نورٍ.

وقد كتبتُ في حاشيةِ ذلك الكتاب: أنّ هذين الشخصين ــ أعني: النودهي وٱبنه الحاج السيدكاك أحمد ــ داخلانِ في نورٍ على نور، وقد صحَّحا

= أعلام الزهاد والمتصوفين، كان من موالي الإمام علي الرضى بن موسى الكاظم. كان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبي. فكان المؤدب يقول له: قل ثالث ثلاثة، فيقول معروف بل هو الواحد، فضربه المعلم ضرباً مبرحاً على ذلك، فهرب منه. . .

أسلم على يد علي بن موسى الرضا ورجع إلى أبويه، فدق الباب، فقيل له: من بالباب؟ فقال: معروف، فقيل له: على أي دين؟ فقال: على الإسلام، فأسلم أبواه. توفي سنة مائتين للهجرة وقيل: مائتين وسنة، وقيل: مائتين وأربع» ا.هـ.

وهكذا لا نعلم مدى صحة هذه الرواية التي سطرها المؤلف؟!

معنى حديث: «علماءُ أُمتي كأنبياءِ بني إسرائيل»[1] ــ إذ إنّ كُلاًّ مِنَ الأبِ والابنِ لهما مرتبةُ حضرةِ زكريا الأَبِ، ويَحْيَى الابنِ؛ في توسعةِ الشريعةِ المطهَّرَةِ وٱنْتِشَارِ الإسلام والصلاحِ والدِّيانة.

وهذا الحديثُ وإن ٱخْتُلِفَ في لفظِهِ لكن معناه صحيحٌ ومستفادٌ من آياتٍ وأحاديثَ أُخْرَى.

ويستفاد من كلام النودي: أنّ لفظَ «آل» في الأَصل «آءل» ٱسمُ فاعلٍ من آلَ يَؤُولُ، بمعنى رَجَعَ، وهو راجعٌ؛ فٱنْتَقلَتِ الهمزةُ بواسطةِ كثرةِ الاستعمالِ من الوسطِ إلى الآخِرِ، وبطريقِ تخفيفِ الهمزةِ صيّروها ياءً؛ مثل: «شاكٌ» أصلُهُ «شائكٌ» فحذفوا الياء[2]، وأَجْرَوا الإعْراب على اللام[3]، لكثرةِ الاستعمالِ وصارَ في حكم كلمةٍ بذاتِهَا، والإمام البيضاويُّ في تفسير «سورة الصافات» ذكر وجهاً في قراءةِ «صالُ الجحيم» بالضم بما ذكرنا.

وليس الأُهيل تصغيراً للآل وإنما للأهل، ولو سُلِّمَ أنّ الأُهيل تصغيرٌ للآل؛ فهاء أُهيل بَدَلٌ من الواو لأنّ الأصل «أُوَيْل».

مسألةٌ: الأَولياءُ في تعليم الطريقة:

الأَولياءُ في تعليمِ الطريقةِ قسمان:

---

(١) قال السيوطي في «الدرر»: لا أصل له، وقال في «المقاصد»: قال شيخنا ــ يعني ابن حجر ــ لا أصل له. ومن قبله الدميري والزركشي وزاد بعضهم: ولا يعرف في كتاب معتبر. ولأبي نعيم بسند ضعيف عن ابن عباس رفعه «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد»، وأنكره أيضاً الشيخ إبراهيم الناجي، وقال النجم: وممن نقله جازماً بأنه حديث مرفوع: الفخر الرازي وموفق الدين ابن قدامة والإسنوي والبارزي واليافعي، وأشار إلى الأخذ بمعناه التفتازاني وفتح الدين الشهيد وأبو بكر الموصلي والسيوطي في «الخصائص».

(٢) أي المقلوبة عن الهمزة.

(٣) لام الفعل، أي الكاف هنا.

فرقة تربِّي المريد غالباً بالأَوْرادِ والعباداتِ الظاهرةِ والرياضياتِ الشاقَّةِ ومجاهدةِ النفس؛ ويقال لهذه الفِرْقَةِ: القَادِريَّة.

وفرقةٌ تربِّيهِ بالتفكُّرِ والأَعمالِ الباطنةِ، ويقولون: إنها باعثةٌ للترقِّي، ويستدلون ويمتثلون قول: «تَفَكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ ستينَ سنةً»[1]، ويقال لهذه الفِرْقَةِ: النَّقْشَبَنْدِيَّة.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥] يعني: يا أيها الذين آمنتم بالله ٱحذروا محارمه، وهيئوا وسائلَ الوصول إليه تعالى بأيِّ طريقٍ ممكنٍ، وتفكَّروا في أيِّ وسيلةٍ تكون نافعةً، ومناسبةً لشأنكم فحصِّلوها، ثم بعد حصولِهَا ٱشتغلوا بمجاهدةِ النفسِ وشيطانِ الإِنْس الكافرِ الظاهريِّ وشيطانِ الجنِّ الكافرِ الباطنيِّ؛ فيمكنُ بعدَها أن تكونوا مفلحين.

وٱعلم بأنّ المقصودَ الأَعظمَ: هو مجاهدةُ النفس، وأما مجاهدةُ الكَفَرَةِ: فهي تَبَعٌ لئلاّ تتلوثَ مملكةُ الإسلام بوجودِهم، وحتى يتفرغَ القلبُ عنهم؛ فتستيطعَ أن تشتغلَ بتمامِ القُوى بجهادِ النَّفْسِ؛ فلذا قال حضرة الرسول ﷺ عند رجوعهِ من جهادِ الكَفَرَةِ: «رَجَعْنَا من الجهادِ الأَصغرِ إلى الجهادِ الأَكبر»[2] وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴾ [الانشراح: ٧، ٨] يعني: إذا فَرَغْتَ من الجهادِ وإرشادِ أَهْلِ الإيمان؛ ٱشتغلْ بجميعِ قُوَّتِكَ في السعي إلى اللّهِ وعبادتِه وإزالةِ القَذَىٰ عن نفسِك، والترقِّي بمعارجِ التقوى؛ فقد قال البيضاويُّ في تفسيره لأَوّلِ «سورةِ البقرة»: أقسامُ التقوى كثيرةٌ وعمدتُهَا ثلاثةٌ:

(١) سبق تخريجه في صحيفة ٣٩.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «تسديد القوس»: هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن علية. والحديث في «الإحياء»، قال العراقي: رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر ورواه الخطيب في «تاريخه» عن جابر بلفظ: قدم النبي ﷺ من غزوة فقال عليه الصلاة والسلام: قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه.

الأول: التقوى والاحترازُ عن الكفرِ، وذلك بالدخولِ في حَلْقَةِ الإسلام، وهذه وظيفة جميع المسلمين، والكفرةُ ـ أيضاً ـ مأمورون به.

الثاني: الاحترازُ والتباعدُ عن العِصْيَان، حتى الصغائر، وهذا القِسْمُ مشهورٌ في عُرْفِ الشرعِ، وتَحْصُلُ بِهِ العدالةُ، فهو وظيفةُ كلِّ مسلمٍ وفرضُ عينٍ عليهم كلِّهم؛ لكن لا يكفرون بتركِهِ.

الثالث: الاحترازُ عن غَفْلَةِ القلبِ عن اللَّهِ؛ وذلك بسببِ الحضور في ساحةِ قدسهِ، والوصولِ إلى مرتبةِ الإيمان الشهوديِّ الذاتيِّ، وآية: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] تشير إلى هذا القسمِ، فلذا فسَّرَها الحديثُ: «أنْ تشكروه ولا تكفروه، وتعبدوه ولا تَعْصُوهُ، وتذكُروه ولا تَنْسَوهُ».

ووسائلُ الجهادِ المأمورِ به مع النفس كثيرةٌ؛ منها: الأَنبياءُ، والأَولياءُ، والعلماءُ، والعباداتُ الظاهرةُ والباطنةُ، وأَخذُ الدُّسْتُورِ من المُرْشِدِ.

وٱعلم بأنّ حضرة الرسول ﷺ درّس دروسَ الطريقةِ السِّرِّيةِ لحضرةِ أبي بكرٍ الصديقِ ولسلمانَ الفارسيِّ؛ فكانا يشتغلان بالأوراد والتفكر القلبيِّ، ويعملانِ قليلاً الأَعمال الجهرية، ودرّس الطريقَةَ الجهريةَ لحضرةِ الإمام عليٍّ؛ فلذا: كان يشتغل بالأَعمال الجهريةِ كثيراً.

وقد أمر المرشدون بالأعمالِ الظاهرةِ والرياضاتِ الشاقّةِ إلى آخرِ سنةِ خَمْسِمِائةٍ للهجرة؛ فكانوا يُوْصِلُون السالكَ إلى الله بهما، ثم وصل الإِرْشَاد إلى يد المُرْشِد العالي الهِمَّةِ حضرةِ خليفةِ الله الأعظم خواجه محمدٍ بهاءِ الدِّيْنِ النَّقْشَبَنْدِي ـ قُدِّسَ سِرُّه ـ وصارَ رئيساً مطلقاً وسلطاناً للأَولياءِ فقال: إنّ زماننا بَعُدَ عن زمانِ السَّعَادة ـ أي: زمان حضرةِ النبيِّ ﷺ ـ وقَوِيَ الكفرُ والفِسْقُ والبِدْعَةُ، والرياضةُ الشاقَّةُ تضغطُ على النَّفْسِ، وليس لها ٱستطاعةُ قبولِهَا، فتشتغلُ بالدفاعِ بأيِّ طريقٍ أمكن؛ فَيَضِلُّ الناسُ كما ضلَّ الحكماءُ الإشراقيون مع ذكائهم!.

فأمر حضرةُ بهاءِ الدِّيْنِ ــ في أوّلِ الأمر ــ بتصفيةِ القلب المجرَّد، ثم الرُّوحِ، ثم الخفيِّ، ثم الأخفى، وفي ضِمْنِ تضفيتِهم طِبْقَ دُسْتُورِ المُرْشِد تصيرُ النَّفْسُ لوَّامَةً، ثم مطمئنةً، ويصيرُ البدنُ عارفاً كاملاً بربِّه ويَسُدّ طريقَ النَّفْسِ، فتَخضُرُ للسلوكِ، وفي ضِمْنِ تصفيةِ السرِّ تتزكّى النَّفْسُ؛ فتصيرُ راضيةً مَرْضِيّةً، وآية: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] ظاهرةٌ في هذه الطريقة؛ فلذا قال حضرةُ الإمامِ الربانيِّ ــ قُدِّسَ سِرُّهُ ــ: بدايتُنا نهايةُ غيرِنا. يعني: نحن في أوّل الأمر نشتغلُ بتقويةِ سُلْطَانِ القُوَى ــ القلب ــ ورئيسِ وزرائِهِ ــ الروح ــ ونسلِّم البَدَنَ ونصيِّرُ جميعَ قُوَاهُ أَغْلِمَةً لهما، وأمّا الأولياءُ الآخرون فيصلون في آخرِ الأمْرِ إلى هذا العمل.

ويجب أنْ يُعْلَمَ أنّ تزكيةَ الأخلاقِ وتصفيةَ اللطائفِ فرضُ عين[1]، والأعمالُ الظاهرةُ كثيرٌ منها مندوبٌ إليه، وتقديمُ الفَرْضِ على النَّدْبِ متفقٌ عليه؛ فَعُلِمَ ــ كما صَرَّحَ به الشيخُ ٱبْنُ حَجَرٍ في «فتاويه الحديثية» ــ أنّ هذه الطريقةَ واجبةٌ بالشريعةِ والطريقةِ والحقيقةِ.

ثم ٱعلم بأنّ الطريقةَ القادريّة الحقّةَ من حيث الظاهرُ أكثرُ موافقةً للشريعةِ من الطريقةِ النقشية؛ لأنها تأمر بالتهجُّدِ والرواتبِ والأورادِ والأدعية الكثيرةِ والتهليل والذِّكْرِ الجَهْرِيِّ والصوم الكثيرِ وغيرِ ما ذكرنا؛ لذا قال الحاج السيد گاك أحمد: الطريقةُ القادريّةُ أكثر أَصالةً وأعلى وأجلى من جميعِ الطُّرُقِ.

ولكونِ هذه الأعمالِ الظاهرةِ والآدابِ المذكورةِ يمكنُ أن تَصْدُرَ عن الفاسِقِ والكافرِ رياءً ويُضِلُّوا بها المسلمينِ، وأمّا التصرُّفُ في القلوب ــ خصوصاً قلوب العلماءِ ــ فلا يمكنُ بدونِ رُتْبَةِ الوِلاَيَةِ الباطنةِ؛ كانت الطريقةُ النقشيةُ أَبْعَدَ الطُّرُقِ عَنِ الخُلَوَاءِ والمَخْرَقَة. قال الشيخ ٱبنُ حجرٍ في «الفتاوي

(١) معلوم أن أول الفروض هومعرفة الله تعالى وصفاته ٱستدلالاً، ثم بعد الاستعداد للإيمان الشهودي يجب على المؤمن تحصيله وذلك لا يكون إلا بالطريقة، ومن هنا كانت فرض عين.

الحديثية»: الطريقةُ الخاليةُ عن كدُوراتِ جَهَلَةِ الصوفيَّةِ هي الطريقةُ العليّةُ النقشبنديّةُ.

فكلٌّ من الطريقتين ــ القادرية والنقشبندية ــ إذا كان فيهما شروطُهما الصحيحةُ؛ فهما عينُ الهدايةِ والوصولِ إلى الله، وإذا كانتا ــ أو كانت إحداهما ــ ظاهريّتين وليس فيهما حقيقتُهما؛ فإضلالٌ، وسببُ بُعْدٍ عن اللّهِ، ومخادعةٌ للمسلمين!.

مسألةٌ: حالُ أهل الطريقة:

أهلُ الطريقةِ إمّا مُرِيْدٌ أَوْ مُرَادٌ؛ وكلٌّ منهما إمّا سالكٌ أَوْ مَجْذُوبٌ.

ولتوضيحِ ذلك نقول: إذا أَراد جماعةٌ زيارةَ الكَعْبَةِ والسفرَ إليها، وكان أحدُهم من أحبابِ المأمورين؛ فهيئوا له جميعَ وسائلِ السفرِ بدونِ علمِهِ واختيارِهِ، وأدخلوه السيَّارَةَ بدونِ علمِهِ بأنّ سَفَرَه لأيِّ موضعٍ يكون! وبدونِ رؤيةِ أيِّ مكانٍ وبلا خطابٍ مع أحد وصل إلى الميقات فأمروه بالإحرام، ولمّا وصل إلى مَكةَ قام بجميعِ أَعمالِ وأركانِ وشرائطِ الحجِّ، فهذا يعلمُ أنه وصل مَقْصِدَه لكنْ لا يعلم جزئياتِ أَحوالِ وأماكنِ طرقِهِ؛ حتى إذا قيل له ارجع لا يستطيع الرجوع.

وثانٍ دخلَ السيارةَ باختياره وصَحِبَهُ شخصٌ ماهرٌ عارفٌ بجميع الأَمكنةِ والقُرَى والبُلْدَانِ والطُّرُقِ، وفهَّمه جميعَ ما مرَّ به في طريقه من الأَماكن والبُلْدَانِ والقَوْمِ الموجودينِ في الطريقِ حتى إذا وصلا إلى الميقاتِ أحرما، ولَمَّا وصلا إلى مَكَّةَ المكرَّمَةِ فعلا جميعَ لوازمِ وشروطِ الحجّ، فهذا عَلِمَ أنه وصل مَقْصِدَه وَحَصَلَ له علمُ جميعِ ما في طريقِهِ؛ حتى لو قيل له ارجع! يستطيع الرجوع بدونِ مُشْكِلَةٍ.

وثالثٌ سافر وأنفق مالاً كثيراً لكن ليس له رفيقٌ ماهرٌ، فإذا سافر بالطيّارَةِ يعلم بعضَ أوضاعِ الطريقِ ويَغْفُل عن الكثيرِ، وإذا سافر بغيرِهَا كالسيّارة

والمشي على الأَقدَام؛ ففي بعضِ المواضع يسأل عن أحوال الطريقِ فَيُذْكَرُ له البعضُ ويُتْرَكُ البعضُ الآخرُ، وفي بعضِ المواضعِ لا يسألُ ولا يعلمُ شيئاً، فبذلك يحصلُ له بعضُ العلم مع المشقَّةِ الشديدةِ ولا يحصُل له الكثيرُ، وكائناً ما كان فهو أعلم بأوضاعِ الطريق من الأول.

إذا اتضح لك هذا فأقول: إنَّ سلوكَ الطريقِ سَفَرٌ من بَلَدِ عالم الناسوتِ الظُّلْمَانيِّ إلى عالَم اللاَّهُوْتِ النورانيِّ بقصدِ الوصول إلى معرفةِ الله تعالى الأقدس، والمَقَامَاتُ والمَسَالِكُ وَمَهَالكُ الطريقِ بمنزلةِ الجادّةِ والجبلِ والبَرِّ والبحرِ، والملائكةُ وأرواحُ المساكينَ والعابرينَ بمنزلةِ أهلِ الدنيا.

فإذا كان اللَّهُ مُحِبّاً وجاذباً لشخصٍ إلى نفسهِ يوفّقه في هذا السفرِ إجباراً؛ ويقال له: مُرَادٌ، مِثْلُ الشخص الأول الذي أرسلته الحكومةُ إلى الحجّ إجباراً، وأيُّ شخصٍ كان هو بنفسه مُحِبّاً وطالباً للوصول إلى الله؛ فيقطعُ هذا الطريقَ بالمشاقِّ الشديدةِ؛ ويقال له: المُرِيْدُ. وكلُّ واحدٍ من هذين الصِّنْفين إذا وصل إلى الله مع تعمُّقِ نظرٍ وطيِّ مقامٍ واطلاع على ما في طريقهم من المَسَالِكِ والمَهَالِكِ يقال له: السالكُ، وإذا وصلوا إليه بِجَذْبَاتِ طيَّارةِ التوفيقِ يقال له: المجذوبُ.

ومراتبُ كلِّ واحدٍ من المريدِ والمُرَادِ السالِكَيْنِ والمجذُوبَيْنِ متفاوتةٌ.

ومن أمثلة المريد والمراد أولاد حضرة الشيخ عثمان سراج الدين طويلي، فقد قال حضرةُ خليفةِ الله الأعْظم السلطانُ محمدٌ علاءُ الدِّيْنِ العثمانيُّ: قال جَدِّي حضرةُ سراج الدِّين: ابني محمدٌ بهَاءُ الدِّيْنِ عاشقٌ لله، وابني الآخرُ عبدُ الرحمن معشوقُ الرَّبِ.

ويلزم على أهل الطريق أن يَتَّبِعوا إرادةَ المُرْشِدِ، ولا يأخذوا دُسْتُورَ غَيْرِهِ؛ لأنَّه وإن كان جميعُ مرشدي الطريقةِ العَلِيَّة النقشبنديةِ متماثِلِينَ ومتساوِينَ في سلوكِ الطريقِ، ويشتركونَ في دروسِ المقَامَاتِ، لكنْ بِحَسَبِ اختلافِ مشارِبهم واجتهادِهم، وبِحَسَبِ اختلافِ استعدادِ المريدينَ صِنْفاً وشخصاً: تتفاوتُ

دروسُ مريدِيهم؛ حتى يكون في مرتبةٍ واحدةٍ لمريدي مُرْشِدٍ واحدٍ دروسٌ متفاوتةٌ، كما هو مشهورٌ: الطرقُ إلى الخالقِ بعددِ أَنفاسِ الخلائق.

ونظيرُ ما ذُكِرَ: أحوالُ الصفِّ البعيدِ عن الكعبة الممتدِّ من المشرقِ إلى المغربِ يصلُّون خَلْفَ إمامٍ واحدٍ؛ فإنهم مع كونهم متوجهينَ إلى عينِ الكعبةِ وصلاتُهم صحيحةٌ، لكنَّ خطَّ مواجهةِ كلٍّ منهم مغايرٌ لخطِّ مواجهة الآخر، على نحوٍ يكون الخطُّ المستقيمُ بين الشخصينِ قاعدةَ مُثلَّثٍ، ونُقْطَةُ الكعبةِ سهمَ ورأسَ المُثَلَّثِ، وخطُّ مواجهةِ كلٍّ منهما ضِلْعَي المُثلَّث، وَمَنْ له مُسْكَةٌ في فَنِّ الهيئةِ يُدرك ما ذكرنا بسهولةٍ، حتى لو وقف صفٌّ آخرُ بعد هذا الصفِّ يتفاوتُ خطُّ مواجهةِ الشخصِ في الخلفِ مع خطِّ مواجهةِ المقابلِ المقدَّمِ بالطولِ والقِصَرِ؛ فكذا طريقُ حضور كلِّ نَفَرٍ مع الذاتِ المقدَّسِ.

مسألةٌ: حقيقة الرابطة:

أفضلُ وسيلةٍ لإزالةِ صدإِ القلبِ وعِصْيَانِهِ، وإزالة عدم ميل الصدرِ إلى التقرُّبِ من الرَّبِّ: رابطةُ مُرْشِدٍ حقيقيٍّ كاملٍ؛ لأنّ الشخصَ في أوّلِ الأمر ـ قبلَ التزكيةِ ـ ليس له ٱستعدادٌ وفتوحٌ لأَخْذِ الأنوارِ والبركاتِ من الحقيقيةِ المحمَّديةِ، وباقي الأرواحِ، ولا يستحقُّ أن يستمِدَّ من ذاتِ اللَّهِ المَعِيْنِ المُطْلَقِ، ويستضيءَ من الذات الأَقْدسِ اللاهوتيِّ؛ لذا تعاونُهُ الرَّابطةُ في جَلْبِ الوارداتِ، وتكونُ للسالكِ هاديةً وجالبةً ومعطيةً للفيوضاتِ، وسببَ ٱنْعكَاسِ صَدْرِهِ بالأَنْوارِ، فتكونُ الفيوضاتُ والبركاتُ الإلهيَّةُ بمنزلةِ عينِ مَنْبَع الماءِ، وصدرُ الرَّابطَةِ بمنزلةِ الظَّرْفِ المملوءِ مِنْ ذلك الماءِ، وعينُ الرَّابطَةِ مثل الأَبِ الساقي المُدْخِلِ الماءَ في فمِ طفلهِ الصغيرِ غيرِ المميِّز، أو بمنزلةِ القمرِ في جَلْبِ شُعَاعِ الشمسِ إلى الأَرضِ.

وٱعلمْ بأنّ للرَّابطةِ أشغالاً كثيرةً؛ عمدتُها أربعة: جلبُ الفيوضاتِ والبركاتِ، ومُظْهريّتُهَا لهما، وإرسالهما إلى صدرِ المُرِيْدِ، وٱنْعِكَاسُ المُرِيْدِ بِأَصل صورةِ الرَّابطَةِ التي أشرقتْ من تجلّيَاتِ وأنوارِ الأُلوهيّةِ، والآيةُ الوافيةُ

في الهدايةِ: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ [المائدة: ٣٥] دليلٌ مُهِمٌّ على ما ذُكِرَ وفصَّلْنَاهُ سابقاً، وآيةُ: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾ [التوبة: ١١٩] إشارة إلى ما ذُكِرَ ـ كما كتبتُه في «حاشيتي على تفسير البَيْضَاوي» ـ لأن المُرَادَ بالكينونةِ في هذه الآيةِ ليستِ المصاحبةَ البدنيةَ الظاهريةَ، بل المرادُ الكينونةُ القلبيةُ؛ فمثلاً: لو خدم كافرٌ النبيَّ ﷺ مُدَّةً طويلةً بدونِ تصديقِهِ لا تُفيدهُ تلكَ الخِدْمةُ شيئاً! ولو كان شخصٌ في هذا الزمانِ عاشقاً للنبيِّ ﷺ ومستحضراً دائماً صورتَهُ في قلبِهِ؛ كان ذلك الشخصُ مع النبيِّ ﷺ ويستفيدُ منه أَتَمَّ الفائدةِ! ولذا قالوا: مَنْ كان مَعَنَا وقلبُهُ في اليمنِ فهو في اليمنِ، ومَنْ كان في اليمنِ وقلبهُ مَعَنَا فهو مَعَنَا. وقال الخواجه الشيرازيُّ: البَعِيْدُ المُطَّلِعُ أفضلُ من القريبِ الجاهلِ.

هٰذا، وقد مضى من هجرةِ الرَّسولِ ﷺ ألفٌ وثلاثُمِائةٍ وٱثنانِ وسبعونَ سنةً، ووُجِدَ في كلِّ قَرْنٍ مئاتٌ من الأفاضل ـ مثلُ: الغوث الكيلاني، وشاه نقشبند، والإمام الرباني، والإمام الغزالي، والشيخ ٱبن حجر، والخطيب الشربيني، والعلاّمة النوتشي، والقزلجي، والجوري، وباقي العلماءِ والفُضَلاءِ ـ وٱتفقوا كلُّهم على حقيقةِ الرَّابِطَةِ وسائرِ مراسمِ الطريقةِ، ولهم إيمانُ عينِ اليقينِ وحقِّ اليقينِ لجميعِ مراسمها، ولَوْ لَمْ يوجدْ دليلٌ سوى إجماعِهِم لكفى.

فالعجبُ من أهل هذا العصرِ لو قيل لهم: إنّ فلاناً الأمريكيَّ أوالروسيَّ صَعِدَ بدونِ وسيلةٍ إلى العرشِ ورأى هناك أشياءَ عجيبةً؛ يقبلونَهُ فوراً ويقولون: إنّ لهم عقلاً عجيباً لا نعرف كيفيةَ أفعالِهِمْ، لكنْ نعلمُ أنهم يستطيعونَ فعلَ ما هو أعجبُ مما ذُكِرَ، في حين يُنْكِرُون حقيقةَ المغيَّبات القائلةِ بحقيقتِها مئاتٌ من أفاضلِ العلماءِ والأولياءِ ويقولون: هذه كلُّهَا مُبْتَدَعَاتٌ وشِرْكٌ ومُخَادَعَةٌ.

ولا يخلو حالُهم؛ إمّا أن يقولوا: ما نراه نُصَدِّقه، أو يقولوا: كلُّ ما لا نراه فهو غَلَطٌ وكَذِبٌ؛ فهذه القضيةُ الكليةُ غَلَطٌ، لأنّ القانونَ المسلَّمَ به عند جميعِ الناس أن المُثْبِتَ مقدَّمٌ على النَّافِي، فلأيِّ شيءٍ تُسيؤون الظَّنَّ بجميعِ الأولياءِ

والعلماءِ الأَفَاضِلِ التابعين لهم، وأظنُّ أن سوءَ الظنِّ هذا؛ قد نشأَ من تَبَدُّلِ مجرَّدَاتِهِمْ بالماديّاتِ غيرِ القابلةِ لإدراكِ المعنويّاتِ. ولو نظر شخصٌ بدقةٍ وتدبّرٍ في آية: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] يدرك جميعَ مراتبِ الطريقةِ كما هو مستفادٌ من هذه الآيةِ، وقد كتبتُه في «حاشيتي على تفسير البَيْضَاوي».

مسألةٌ: طريق المكاشفة:

يلزم أنْ يُعْلَمَ أَوّلاً أنّ الكلام ــ بمعنى ما تُكُلِّمَ به والقصّة ــ له معنيان:

الأَولُ: اللفظيُّ؛ وهو صوتٌ لسانيٌّ وفَمِيٌّ معتمدٌ على مخرج الفَمِ.

الثاني: مثل الخَطَرَاتِ التي تقعُ في القلبِ.

ويقولون: الأَولُ تعبيرٌ عن الثاني، يعني: تقول في أوّلِ الأَمر في قلبك: جاءَ أَحمدُ، ثم تتلفَّظُ به[1]، ولهذا قيل: الكلامُ الحقيقيُّ هو الكلامُ النفسيُّ، وإطلاقُ الكلامِ والقِصَّةِ على كليهما حقيقيٌّ كما تقول: عندي كلامٌ أُريد أنْ أَقولَهُ لك.

واْعلمْ بأنّ هذينِ النوعينِ من الكلامِ موجودان للبشرِ والجنِّ والمَلَكِ والحورِ والغِلْمَانِ وللرَّبِّ تعالى، لكنَّ اللَّهَ تعالى غيرُ مُحْتاجٍ في إيراد كلٍّ منهما

---

(١) وقد اْصطلح علماءُ فَنِّ الكلام، على تسميةِ ما يُدَبِّره في نفسه ــ أولاً ــ من الكلام بــ: الكلام النفسي ــ كما سيجيءُ من كلامِ المصنِّف ــ والدليل على صحة الكلام النفسي قوله تعالى: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ [المجادلة: ٨]؛ فأثبت لهم كلاماً نفسياً.
ومن كلام سيدنا الفاروق عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ: لقد زوّرتُ في نفسي مقالاً؛ أي: هيّأتُ ورتبتُ.
ومن كلام الأخطل:
إن الكــلام لفـــي الفـــؤاد وإنمـــا   جعـل اللســان علـى الفـؤاد دليـلاً

إلى آلات جُسْمَانيةٍ في اللفظيِّ وروحانيةٍ في النفسيِّ، فأنتَ مثلاً: تحتاجُ في إجراء اللفظِ إلى الهواءِ واللسانِ والشَّفَةِ والحَلْقِ وسائرِ المخارجِ، وفي إجراءِ النفسيِّ إلى القوَّةِ العاقلةِ والحسِّ المُشْتَرَكِ والمتصرِّفة وسائرِ الحَواسِّ الباطنةِ، لكنَّ اللّٰهَ تعالى لا يحتاجُ في صَرْفِ قُدْرَتِهِ وإرادتِهِ وبصرِهِ وسَمْعِهِ إلى آلاتٍ، وغيرُهُ مُحْتَاجٌ؛ فأنت مثلاً: إذا أَردتَّ أن ترفع شيئاً تحتاجُ إلى اليدِ وباقي آلاتِ الرَّفع، والله تعالى رَفَعَ السماوات بغير عَمَدٍ، وكذا في إجراءِ الكلام اللفظيِّ والنفسيِّ لا يحتاج سبحانه إلى الآلاتِ.

فصدور الكلامِ النفسيِّ عن الذاتِ المقدَّسِ مجمعٌ عليه بين الصوفيةِ وجميعِ أهلِ السنةِ، ولا يُنْكِرهُ أحَدٌ سوى المعتزلةِ وأتباعهم، ولكن ٱختلفوا في سماعِهِ عن ذاتِهِ كذلك، فجميعُ الصوفيةِ والأَشاعرةِ مُتَّفِقونَ على أن الأَنبياءَ والأَولياءَ يسمعونَهُ بطريقِ المشاهدةِ، وباقي المؤمنينَ يسمعونَهُ بطريق الإلهام. وأمّا الأنبياءُ فكما أنهم يسمعونه بسمعِ القلبِ والرُّوحِ؛ يسمعونَهُ ــ أيضاً ــ بواسطةِ الرُّوحِ المجرَّدِ بجميعِ ذرَّاتِ الوجودِ الظاهريَّةِ والمعنويةِ، وغيرُ الأَنبياءِ ــ في الدنيا ــ ليس لهم ٱستعدادُ سماعهِ بالسَّمْعِ الظاهريِّ. وهذا السَّمَاعُ حَصَلَ مَرَّاتٍ متعددةً لحضرةِ مُحَمَّدٍ وموسى ــ عليهما الصَّلاة والسَّلام ــ وأما مشايخُ الماتريديةِ فأنكروه!.

وصدورُ أصلِ الكلام اللفظيِّ عن الذاتِ الأَقدس ــ أيضاً ــ مُتَّفَقٌ عليه بين الصوفيةِ وبعضٍ من محقِّقي الأَشاعرةِ وغيرِهم، وسَمَاعُه في الدنيا حصل مراراً لحضرة موسى ــ عليه السلام ــ ولحضرةِ محمد ﷺ في ليلةِ المِعْرَاجِ فقط، ولكنَّ جُمْهُوْرَ المتكلمينَ ينكرونه ويقولون: إن الله تعالى يخلقُ اللفظ في الشجرِ أو في سَمْعِ النبيِّ ولا يصدرُ اللفظُ عن ذاته البحث، وعليه شُرَّاح «المواقف» و«التجريد» و«المقاصد» و«التهذيب» وغيرِ ما ذُكِرَ.

وقد رجّح ٱلشيخ ٱبن حَجَر في «الفتاوي الحديثية» صدورَ اللفظِ عن الذات الأَقدس، وجواز سماعِهِ كذلك، ونقل بعضَ الأَحاديثِ لإثباتِ دعواه. كما صرّح به القاضي البيضاويُّ في تفسيرِ أوائل «سورة طه» وفي تفسير آية: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وإن كان يُظهر التردُّدَ بين قولين في

تفسير أوائل «سورة البقرة».

وقد جاء توضيح القاضي البيضاوي لعقيدته ــ في صدور اللفظ عن الذاتِ الأقدس وجواز سماعه كذلك ــ في تفسير «طه» والآية المذكورة: بأنَّ الرُّوْحَ المجرَّدَ لحضرةِ النبيِّ ﷺ يسمعُه ويعطيهِ فوراً إلى القلبِ الصَّنَوْبَرِيِّ والعاقلةِ، وهما يعطيانِهِ للمتصرِّفة، وهي للحسِّ المشترَكِ، والحسُّ المشتَرَكُ يعطيهِ لجميعِ ذرَّاتِ الوجود؛ فيكون بعد صدورِ اللفظِ من الذاتِ الأقدس يسمعُ جميعُ ذَرَّاتِ الوجودِ كلامَ اللَّهِ لكنْ لا بالذاتِ بل بالطريقِ المُتناوِبَةِ المارّةِ.

ولكنَّ عقيدتي: أنّ ما ذُكِرَ هو طريقُ سماع غيرِ الأنبياءِ في القيامةِ، وأما طريقُ سَمَاعِهم ــ عليهم السلام ــ فإنهم يسمعونه بجميعِ ذَرَّاتِ وجودِهم بدونِ التناوُب والوسائل؛ لأنّ ماديَّاتِهم اكتسبتْ التجرُّدَ على نحوِ صَارَتْ أقوى في التجرُّدِ من مجرَّدات الأولياءِ.

ولقد حقَّقْتُ في بعضِ كتبي وحواشيَّ أنَّ عدمَ صدورِ اللفظِ عن الذاتِ الأَقدسِ منافٍ لصريحِ بعضِ الآياتِ، وأنّ تأويل: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ و: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ بأنّ اللَّهَ خَلَقَ اللفظَ في الشجرِ وسَمِعَهُ موسى، خلافُ ظاهرِ لفظِ الآية، وبعين هذا الدليل الذي ذكرتُ الآنَ أبطل العلماءُ قولَ المعتزلةِ؛ والتفريق بين الكلامِ اللفظيِّ والنفسيِّ: بأنّ الأولَ يحتاج إلى الآلةِ دونَ الثاني: باطلٌ، وقياسٌ للغائبِ على الشاهدِ.

والحاصل: أنّ القولَ الحقَّ هو: أن الكلامَ اللفظيَّ والنفسيَّ صادِرَانِ عن الذاتِ الأَقدسِ ويُسْمَعُ منه بجميعِ ذَرَّاتِ الوجودِ بالتفصيل السابقِ.

ويجب أن يُعْلَمَ ثانياً: أنّ العلمَ الحدثيَّ قسمانِ:

قسمٌ معتادٌ يَحْصُلُ بالحواسِّ الظاهرةِ والباطنةِ والعاقلةِ؛ وقسمٌ غيرُ معتادٍ يقال له: المكاشفةُ، وهو ثلاثةَ عَشَرَ نوعاً:

الأولُ: يَحْصُلُ بالموتِ؛ فإذا مات الشخصُ أدرك المغيَّباتِ، كما

قال ﷺ: «الناسُ نيامٌ فإذا ماتوا أنتبهوا»[1] يعني: أنّ الناسَ في حالِ الحياةِ يكونون في نومِ غَفْلَةٍ، ليس لهم عينُ إدراكِ المغيَّبَاتِ؛ فإذا ماتوا ينتبهون ويُحِسُّون بحواسِّهم المغيَّبَاتِ.

الثاني: يَحْصُلُ بدوام الأَمراضِ المعطِّلةِ للمُدْرِكَاتِ ــ مثلُ: الجنونِ، وداءِ الكَلَبِ وغيرِهما ــ فإنها غالباً تكون سبباً لإدراكِ المغيَّبَاتِ.

الثالث: الرؤيا.

الرابع: الإلهام، يعني: سَمَاع الكلام النفسيِّ من المَلَكِ أو من جانبِ الذَّاتِ الأَقدسِ، ولكنْ لا يَعْرِفُ صاحبُهُ أَينَ حصلَ له، كما إذَا تدبَّر الشخصُ يخطر ببالِهِ شيءٌ ليسَ له معرفةٌ سابقةٌ به ويكونُ صادقاً.

الخامس: سماعُ الكلامِ النفسيِّ من الشخصِ الذي جَاءَ إليك وسَمَاع خطراتِهِ ــ مثلاً: قد يحصُلُ أنْ تعلمَ خطراتِ رفيقِكَ بدونِ معرفةٍ سابقةٍ ــ وهذا دليلٌ قويٌّ على أنّ لكلٍّ من الشخصينِ روحاً مجرَّداً مواجِهاً لروحِ رفيقِهِ المجرَّدِ بدونِ تداخل الماديّاتِ.

وكلٌّ من هذه الخمسِ موجودٌ لكلِّ بشرٍ، وما ذُكِرَ أُنموذجٌ لكلِّ المكاشفاتِ؛ لذا: إذا أنكر شخصٌ مكاشفاتِ الأَولياءِ وأراد اللَّهُ تعذيبه على ذلك، لا يستطيع أن يعتذرَ بأنه لم يعلَمْه؛ لأنّ اللَّهَ يقول لهُ: لك مكاشفات لكنها ليست قوية.

السادس: إلقاءُ الشياطينِ والنفسِ الأَمَّارةِ؛ لأنها توقع الخَطَرَاتِ في قلب البشرِ، وتكونُ أحياناً صادقةً حتى تستدرجه في الضلالِ، وليستْ هذه الحالةُ للأَنبياءِ والأَولياءِ الكمّلِ؛ لمحلِّ العِصْمَةِ والحِفْظِ، لكنْ تَحْصُلُ غالباً للكفرةِ والفُسَّاقِ.

---

(1) قال في «المقاصد الحسنة»: هو من قول عليٍّ بن أبي طالب. وعزاه الشعرانيُّ في «الطبقات» إلى سهل بن عبد الله التستريّ إ.هـ.

ولمّا لَمْ يتميَّزْ هذا القسمُ عن الإلهام لغيرِ الأولياءِ، لَمْ يَعُدَّ علماءُ الظاهرِ الإلهامَ من أسبابِ العلم. وأما الأولياءُ: فلأنهم يميّزونه؛ عدّوا الإلهام من أسباب العلمِ لنفسِهم.

السابع: إلهامُ الخواصِّ؛ يعني: سماعُ الرُّوحِ المجرَّدِ للنبيِّ والوليِّ كلامَ اللَّهِ النفسيَّ من ذاتِهِ الأَقدسِ، أو كلامَهُ اللفظيَّ أو النفسيَّ من المَلَكِ أو الحورِ أو الغِلْمَانِ أو الشياطين[1] أو الجنّ، ويَرَى المُتكلِّمَ بهذا الكلام.

الثامن: السماع من الهاتف؛ بأن يسمعَ صوتاً بالأُذنِ الظاهرةِ ولا يرى المتكلم.

التاسع: حضورُ الواقعةِ البعيدةِ؛ كاطّلَاعِ الوليِّ في المشرقِ على واقعةٍ بعيدةٍ في المغربِ حالَ وقوعِهَا.

العاشر: أن ينظر إلى لوحِ المحوِ والإثباتِ الذي يوجدُ في السماءِ الأُولى، وكُتِبَتْ فيهِ التعليقَاتُ. قال القطبُ الأكرمُ الشيخُ الشعرانيُّ في كتابه «البحرُ الموروُدُ»: إنّ الألواحَ ثَلاثُمِائةٍ وسِتُّونَ لوحاً.

الحادي عشر: مطالعةُ اللّوح المحفوظِ وعالَم المِثَالِ وعلمِ الله.

وهذه الخمسةُ الأخيرةُ لا تقع لغير نبيٍّ أو لغيرِ وليٍّ.

الثاني عشر: سَمَاعُ كَلاَمِهِ اللفظيِّ أو النفسيِّ بالبدنِ والقوى الظاهرةِ من الذَّاتِ الأقدسِ، وهذا لا يَحْصُل في الدنيا لغير الأنبياءِ، ووقوعه مراراً لحضرةِ موسى ــ عليه السلام ــ ولحضرةِ محمدٍ ﷺ ليلةَ المِعْرَاجِ ثابتٌ.

الثالث عشر: سماعُ كلامِهِ بِطريقِ الوحي الخاصِّ من الملائكةِ، وهذانِ القسمانِ الأخيرانِ يقال لهما: الوحيُ الأخصُّ، ولا يُمْكِنَانِ عادةً للأولياءِ، حتى لو جُمِعَتْ فيوضاتُ وبركاتُ جميعِ الأولياءِ في صدر أفضلهم حضرةِ أبي بكرٍ

(١) بالنسبة إلى الشيطاطين فالمقصود منه سماع الكلام اللفظي.

الصدّيقِ؛ فمع هذا لا يستطيع أن يَأخذَ كلمةً واحدةً بهاتينِ الطريقتينِ الأخيرتينِ.

وليعلمْ أنّ الوحيَ لكونه عبارةً عن: أخذِ المعنى بطريقٍ سريٍّ وغيرِ عاديٍّ، جَاءَ بالمعنى الأعمِّ ـ يعني: أخذ المعنى سواءٌ بطريق الرؤيا أم الإلهامِ العامِّ أو الخاصِّ، أم سَمَاعِ خَطَرَاتِ الغيرِ، أم الهاتف، أم مطالعةِ أصلِ الواقعةِ، أم لوحِ المحو والإثباتِ، أم اللوحِ المحفوظِ وعالَمِ المِثَالِ وعلم الله، أم القسمين الأخيرين.

فخلاصة الوحي أنه يجيء بالمعنى الأعمِّ للمكاشفةِ سوى الأقسامِ الثلاثةِ من الموتِ، والأمراضِ المعطِّلَةِ، وإلقاءِ الشياطين؛ فيشمل عشرةً مِنَ الثلاثةَ عَشَرَ المذكورة، وآية: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤] إشارة إلى هذا المعنى الأعمِّ للوحي.

قال الشيخ الشعرانيُّ في «البحر المورود»: إنّ المكاشفةَ التي حَصَلَتْ من الإلهام العامِّ، وسماعِ الهاتفِ، والرؤيا، ومطالعةِ لوح المحوِ والإثبات: يمكن أن لا تكون صادقةً.

لذا: لو كان طريقُ مكاشفةِ واحدٍ من الأولياءِ من هذه الطُّرُقِ الأربعةِ، فالأفضلُ أنْ لا يظهرها لأنه يمكنُ أن لا يكونَ صادقاً، فيصيرَ سبباً لإنكارِ الناسِ لهذه الطريقةِ؛ فَعُلِمَ أنَّ عدمَ صدقِ كراماتِ بعضِ الأولياءِ من هذا البابِ.

ولمّا بحثنا عن لوحِ المحوِ والإثباتِ، واللوحِ المحفوظِ، لَزِمَ علينا أن نبيِّنَهما إجمالاً، لذا نقول:

عَلِمَ اللَّهُ في الأزَلِ أنه يفعلُ جميعَ وقائعِ العالَمِ الأولِ والعالَمِ الآخِرِ؛ بأختيارِهِ فقط في غيرِ الأفعالِ الاختياريةِ للحيوانِ والجنِّ والشياطينِ والحورِ والغِلْمَانِ والمَلَكِ، وبتبعيَّةِ آختيارِهِمْ في أفعالهم الاختيارية، وأثبت جميعَهُ في عِلْمِهِ المباركِ. ثُمَّ بَعْدَ خَلْقِ عَالَمِ المِثَالِ واللوحِ المحفوظِ: أثبته تعالى فيهما أيضاً؛ لذا قال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ [يس: ١٢] وقال: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩] وهما لَيْسَا بِقَابِلَيْنِ للتغييرِ، وَكَتَبَ

سبحانه التعليقاتِ في ألواحِ المحوِ والإثبات.

وتوضيحُهُ فيما يأتي: ثبت في عِلْمِ اللّٰهِ وعالمِ المِثَالِ واللوحِ المحفوظِ: أن فلاناً يذهبُ بٱختيارِهِ إلى المسجد ويصلي فيه، وبٱختيارِهِ يَزْنِي مع فُلَانَةٍ، وأَنا أُتْبِعُ ٱختياريَ في الفعلينِ لاختياره، ولا أُخْبِرُهُ على واحدٍ منهما، وكَتَبَ في لوحِ المحوِ والإِثْبَاتِ: لو صرفَ ٱختيارَهُ في فعلِ الصلاةِ وذهب إلى المسجد فَسَيُصَلِّي، وإلا فلا يصلي، وإذا صرف ٱختيارَه في فعل الزنا فإنه يفعل الزنا، وإلا فلا، ولما كان جماعةٌ من الملائكةِ مأمورين بالتصرُّفِ في اللوحِ ـ ويقال لهم: السَّفَرَةُ الكِرَامُ البَرَرَةُ ـ فإذا صَلَّى فلانٌ في المسجدِ؛ يحذفون الشرطيةَ والتعليقيةَ الثانيةَ ويكتبون المَقَام الأول: ذهب وصلَّى. وإذا لم يذهبْ في الوقتِ المعلوم يحذفون التعليقَ الأولَ ويكتبون مكانه: ما ذهب وما صلَّى. وإشارة إلى هذا قال الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

والحاصل: من تعلَّمَ عِلْمَ المنطقِ يفهمْ أنَّ اللوحَ المحفوظَ وعالمَ المِثَالِ وعلمَ اللّٰهِ: موضعُ النتائجِ الواضعةِ والرَّافِعَةِ، ولوحَ المحوِ والإِثْبَاتِ: موضعُ المقدِّماتِ الشرطيةِ أوّلاً، لكنِ السَّفَرَةُ يغيِّرون الشرطياتِ ويضمون إلى موضعها النتائجَ الواضعةَ أو الرَّافعةَ في الاستقبال طِبْقَ علمِ اللّٰهِ الأزليِّ ووقوعِ العملِ الاستقباليِّ.

فَعُلِمَ أنَّ تقسيمَ المقدَّرات إلى المُبْرَم والمُعلَّق ـ كما هو مشهورٌ ـ تقسيمٌ ظاهريٌّ يُستفادُ من لوح المحوِ والإِثْبَاتِ الموجودِ فيها التعليقُ والإِبْرَامُ أيضاً، وإلا فبرعاية علم اللّٰهِ جميعُ الأَشْيَاءِ مُبْرَمَةٌ وليس فيها إِجْبَارٌ لا بالنسبةِ إلى الله ولا بالنسبة إلى العبد، وقد فصلتُ هذا الموضوعَ في الكتبِ المتعدّدةِ بحيث ما أبقيتُ فيه إشكالاً.

هذا؛ وسماعُ الكلام النفسيِّ واللفظيِّ من الحيوانِ والجماداتِ هو إلهام الخواصِّ، فقد جَاءَ في الحديثِ الصحيحِ ـ ما معناه ـ: أنَّ حضرةَ عيسى ـ

عليه السلام ــ ذهب يوماً مع حوارِيّيهِ إلى موضع، وفي وَسَطِ الطريقِ وجدوا كثيراً من الغائطِ ذي رائحة مُنْتِنَةٍ، فوضعَ الحواريّون أيديَهم على أُنوفِهم اْتقاءً من الرائحةِ الكريهةِ، بينما لم يفعلْ ذلك حضرةُ عيسى ــ عليه السلام ــ فتوقّف مُدَّةً ثم قال: يقول هذا الغائطُ: إنه كان سابقاً ثمراً وطعاماً لذيذاً شريفاً طيّباً؛ لكنْ بعد أن صاحبَ النَّاسَ زمناً قليلاً اْبتُلِيَ بهذا الوضعِ المحسوسِ، ومع هذا يَنْفُرون منه.

وثَبَتَ ــ أيضاً ــ في صحيح البخاري قصةُ البقرةِ التي وَضَعَ صاحبُهَا على ظهرِهَا حِمْلاً ثقيلاً فاْلتفتتْ إليه قائلةً: ما خُلِقْتُ للحَمْلِ، فتعجّب صاحبُها من كلامِهَا، وعندما أخبر النبي ﷺ بالأمر قال له: «أنا أُصدِّق به».

وحملُ هذا التكلُّم على الدِّلاَلَةِ ولسانِ الحَالِ كما قاله الملاحدةُ ــ مع أنه إنكارٌ لِقُدْرَةِ اللَّهِ ــ خلافُ ظاهرِ الحديثِ؛ لأنّ دِلاَلَةَ الحالِ ليست بمعجِبَةٍ حتى يتعجَّب الشخصُ منه، وقول حضرةِ النبيِّ ﷺ: «أنا أصدق به» تعريضٌ بجهلِ الشخصِ أو نِفَاقِهِ، وإشارةٌ إلى أنّ الإيمان بهذه الأشياءِ من وظيفةِ خواصّ المؤمنينَ الصادقينَ الذين لا ينحصرُ معلومُهم في المحسوساتِ. ويمكن أن يكونَ الشخصُ المتعجِّبُ من المؤمنينَ الصادقينَ، ولكنْ ما سَمِعَ مثلَهُ إلى ذلك الحينِ، فلذا تعجب منه!.

مسألةٌ: حقيقة الولاية:

حقيقةُ الولايةِ محبَّةٌ وعلاقةٌ مع الله؛ فأيُّ شخصٍ أحبَّ اللَّهَ وأحبه اللَّهُ: فهو وليٌّ بهذا المعنى، وعلامتُهُ محبَّةُ الاجتنابِ عن المناهي وفعلِ الأوامرِ. ويلزمُ أن يوجدَ في كلِّ زمانٍ مائةٌ وأربعةٌ وعِشْرونَ وليّاً بالمعنى المذكورِ كحدٍّ أدنى، وقد يوجدُ أكثرُ من ذلك؛ فإذا نَقَصَ واحدٌ منهم قامتِ الساعةُ، وهذا معنى قولِ الرسول ﷺ: «لاَ تَزَالُ طائفةٌ من أُمَّتِي ظاهرينَ على الحقِّ لا يضرُّهم من خَذَلَهمْ حتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وهم كذلك»[١].

---

(١) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه عن ثوبان. وهو في البخاري عن معاوية.

وأَغلبُ البُلَهَاءِ والسُّفَهَاءِ من هذه الطائفةِ؛ كما قال ﷺ: «أكثرُ أهل الجنَّةِ البُلْهُ»[1] والمرادُ بالسَّفَاهَةِ هنا: عدمُ المُبَالاَةِ بالدنيا، والتصوُّر بصورِ الذين لا يعلمون شيئاً، ولكنْ يعلمون أحكامَ الدِّينِ ودناءَةَ النفسِ، وأَغْلَبُ العلماءِ والصُّلَحَاءِ مراكزِ منافعِ ومصالحِ الناس كالأُمراءِ والمحسنينَ للفقراءِ: من هذه الجماعة.

وأما في عُرْفِ أَهْلِ الفِقْهِ وعلماءِ الظاهرِ فالولايةُ عبارةٌ عن: ٱجْتِنَابِ الكبائرِ، وأداءِ المأموراتِ الواجبةِ والمندوبةِ، والتزيُّنِ بٱتباعِ سُنَنِ النبيِّ ﷺ.

وفي عُرْفِ أَهلِ العِرْفَانِ والصوفيَّةِ؛ فالولايةُ عبارةٌ عن: زوالِ تَنَاكُرِ الماديّاتِ، والمحبةِ للذَّاتِ الأَقدسِ، والمعرفةِ بالربوبيّةِ، وصُعودِ المجرَّدَاتِ إلى مقامِ القُرْبِ من الله؛ بحيثُ تتحوَّل إلى حالةٍ تصير نفسُهُ مطمئنةً، ويكون دائماً مترصّداً لألطافِ الربوبيّةِ، ولا يَغْفُلُ عنه آناً ــ لا في اليقظةِ ولا في النوم ــ ويشتغلُ أصحابُ هذا الحالِ بالفرائضِ وتركِ المعاصي، ويتركون ــ غالباً ــ المندوباتِ الظاهرةَ ويشتغلون بتزكيةِ النَّفْسِ، وتصفية المجرَّدَاتِ، والتدبر في الآفاق والأَنفس؛ لأنها فرضُ عينٍ ــ كما مرّ سابقاً ــ ومقصودُهم الأَصليُّ هو الوصولُ إلى اللَّهِ تعالى؛ الحاصلُ لهم بطيِّ مقاماتِ العِرْفَانِ.

وبناءً على ما يُسْتَفاد من الأَحاديث: فإنّ عددَ الأَولياءِ لاَ يَنْقُصُ عن ثلاثِمائةٍ وٱثنين وخمسينَ؛ منهم: غوثُ الوقتِ والرئيسُ ويقال له: الغَوْثُ والفَرْدُ والقُطْبُ والجامعُ، ولا يعرفُهُ الشخصُ إلا إذا أَقرَّ هو بنفسِهِ، وأربعةٌ منهم يقال لهم: الأَوتادُ، رتبتهم أسفلُ من الرئيس، وسبعةٌ منهم: أبدالٌ، وأربعونَ منهم: نُجَبَاءُ ــ ويُقال لهم أيضاً: رجالُ الغيبِ ــ، وثلاثُمِائةٍ منهم نُقَبَاءُ؛ إذَا مات الغَوْثُ يقوم مَقَامَه واحدٌ من الأَوتادِ، ومن الأَوْتَادِ واحدٌ من الأَبْدَالِ، ومن الأَبْدَالِ واحدٌ من رجالِ الغيبِ، ومن رجالِ الغيبِ واحدٌ من النُّقَبَاءِ، ومن النُّقَبَاءِ واحدٌ من الصُّلَحَاءِ.

---

(١) رواه البزار عن أنس.

فإنْ قِيلَ: الموافِقُ للأحاديثِ ــ كما قال الشيخ ٱبْنُ حجرٍ في «فتاويه» ــ: أنّ موضعَ القُطْبِ مَكَّةُ ولكلٍّ من الباقينَ مَقَامٌ معلومٌ؟!.

فنقول في جوابِهِ ــ كما أشرنا له سابقاً ويأتي تفصيلُهُ لاحقاً ــ: الأَرواحُ المجرَّدةُ للأَوْلِيَاءِ تستطيعُ أن تكونَ في آنٍ واحدٍ في كلِّ مكانٍ؛ فلذا: لا فرقَ بينَ مكَّةَ المعظَّمَةِ وغيرِهَا لهم. ومقصودُ الحديث: أنّ محلَّ سلطنتِهِم ودساتيرِهِم: ما ذكره الحديثُ وإن كانوا بأجسامهم في موضعٍ آخرَ.

والحاصل: أنّ مَحَلَّ سلطنةِ القُطْبِ: الكعبةُ وإن كان بجسمه في موضعٍ آخرَ، والشاهدُ على ذلك: أنّ الخلفاءَ الأَربعةَ والأئمَّةَ الأَطهارَ أقطابٌ بٱتفاقِ المسلمين مع أنّ أجسادَهم لم تكن بمكَّةَ بل في المدينةِ المنوَّرَةِ والكُوْفَةِ والعِرَاقِ وباقي الأَقطار، وكذا حضرةُ عبدِ القادرِ الگيلانيِّ، وشاهِ نَقْشَبَنْد، والإمام الربَّانيِّ: لم يكونوا بمكَّةَ.

وقد كتب مولانا عبدُ الرحمن الجامي في «حواشيه على المثنوي»: أنّ ٱسْمَ الغَوْثِ في مَقَامِ الأُلوهيَّةِ: عبدُ اللَّهِ، ووزيرُهُ الأولُ من الأَوْتَادِ ٱسْمه: عبدُ الملِك، ووزيرُهُ الثاني من الأَوْتَادِ: عبدُ ربِّهِ. والمعنى: أنهم يُسَمَّوْنَ بما ذُكِرَ عِنْدَ اللَّهِ والملائكةِ والأَوْلِيَاءِ ويخاطبون به. والذَّاتُ الأَقدسُ قبلَ موتِ عبدِ اللَّهِ: يرفعُ الحِجَابَ عن عبدِ الملِكِ ويُعْلِمُهُ بِمَقَامِهِ وخلافتِهِ؛ حتى يكونَ مستعدّاً للرياسةِ وخلافةِ اللَّهِ والقُطْبِيَّةِ والمَنْبَعِيَّةِ.

وقال ــ أيضاً ــ: قبل أربعينَ يوماً من مَوْتِ الرسول ﷺ رفع اللَّهُ الحجابَ عن أبي بكرٍ الصّديقِ وعلّمَه الأشياء، وأعلمه بموتِ حضرةِ النبيِّ ﷺ فلذا ثَبَتَ وما تغيَّر حالُهُ بِخلافِ الباقين.

مسألةٌ: الولاية الأَصلية والظِّلِّيّة والجَهْرِيّة والاستتارِيّة:

الولايةُ الأَصليةُ: هي أنْ يكونَ الوليُّ ــ كما أنه وصلَ إلى مَقَامِ الولايةِ ــ قد وصل أيضاً إلى مَقَامِ المُكَاشفةِ؛ بحيثُ يرى جميعَ أحوالِ وارداتِ الطريقةِ،

ويتكلمُ مع الأرواحِ والأشباحِ والملائكةِ، وبجميعِ ذرّاتِ وجودِهِ يرى ويسمعُ ويَشَمُّ ويذوقُ ويتكلَّمُ ويتخيَّلُ ويتوهّمُ ويتعقّلُ، والقُرْبُ والبُعْدُ عندَه سِيّانِ، وهو مشمولٌ بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] ويستطيعُ أن يفعلَ الخَلْوَة في الجَلْوَة، والسفرَ في الحَضَرِ، ويُلاَحِظَ أنفاسَهُ نَفَساً نَفَساً من الغَفْلَةِ، ويقرأ جميعَ القرآنِ في آنٍ واحدٍ، وتصيرُ جميعُ علومِه الإجماليةِ تفصيليّةً؛ وخَتْمُ الإمَامِ عليٍّ ــ رضي الله عنه ــ القرآنَ وقتَ الرُّكوبِ على الخَيْلِ كان من هذا القبيلِ، وٱشتراطُ الإمامِ الشافعيِّ المقارنةَ الحقيقيّةَ في الصلاةِ والعلمَ بِهَا ــ إن كان صحيحاً ــ فمبنيٌّ على هذا، يعني: يجبُ عليهم لا على غيرهم؛ لأنّ حصولَهَا لغيرهم محالٌ[1]. وهذا الشخصُ: جميعُ عالَمِ المُشَاهَدةِ عندَه كالذَّرَّةِ، وترى عينُهُ الأشياءَ الخارجيّةَ والداخليةَ؛ لكنْ هذه الحالةُ ليست دائمةً، وتحصلُ هذه الرُّتْبَةُ غالباً لمن صيّره الله مرشداً ومصلحاً، وأغلق عليه أبواب الاشتباه.

والولايةُ الظِّلِّية: هي أن يكونَ الشخصُ ــ مع وصولِهِ إلى مقاماتِ الولايةِ وصيرورةِ نفسِهِ مطمئنةً ــ ليس له مكاشفةٌ لكنْ لروحِهِ مأموريةُ المصاحبةِ مع الأَرواحِ دونَ علمِهِ بهذهِ المأموريةِ ولا بكونِهِ ولياً، وإنما يرتفع الغِطَاءُ في مُدّةٍ قبلَ الموتِ عن لطائفِهِ؛ فيَعْلَمُ حالَ نفسِهِ وولايتِهِ، وهذه الرُّتْبَةُ تحصُل غالباً لمن ٱختاره اللّهُ للاجتهادِ والتدريس والقَضَاءِ والفتوى والإمارة وباقي الخَدَمَاتِ العامّةِ؛ لأنهم لو وصلوا إلى المكاشفة لا يستطيعون تحصيلَ وتكميلَ الأَحوالِ المرجوعةِ إليهم، فتَبْطُل مصالحُ المسلمين والمخلوقين، ولو حصلَ له هذه الحالةُ في بعضِ الأَحوالِ يوجد له الاشتباه.

وكلٌّ من القسمينِ لو عَمِلوا على نحوٍ لا يُفْسِدُ عقيدةَ النَّاسِ بهم ــ بل تزدادُ به عقيدتُهم بهم ــ فحينئذٍ يُقال لولايتهم: الولايةُ الجَلِيَّةُ والجَهْرِيَّةُ. ولو

(١) قال الأستاذ الملا محمد بداقي: «ومقصد المؤلف من المقارنة الحقيقية هو العلم بالمقارنة، وإلا فذات المقارنة الواجبة عند الشافعية ليست بمشكلة على أحد من الناس».

عَمِلوا غالباً على نحوٍ يُفسِدُ عقيدةَ النَّاس بهم، ويَظْهَرُون في أعينهم عُصَاةً؛ فحينئذٍ يُقَال لولايتِهم: ٱستاريّةٌ. وقولُهم ومصاحبتُهم لمن ليس له بصيرة خَطَرٌ، وتقع هذه الطائفةُ تحتَ ٱسْمِ السَّتَّارِ وفي ظِلِّ: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠]، وفي ظِلِّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢﴾ [الأعراف: ١٨٢] يعني: كما أن اللَّهَ يُرْخي العِنَانَ للكفَرَة ويستدرجُهم من حيثُ لا يعلمون؛ فهذه الفِرْقَةُ تستدرجُ الأشخاصَ المنكرينَ الذين يئسوا من إصلاحهم حتى يستغرقُوا في الإنكار.

وهنا لا بُدّ أن نوضّح معنى قول اللَّهِ في الحديث القدسيِّ ــ إن شاء الله ــ: «من عادى لي ولياً فقد آذنتُه بالحربِ، وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما ٱفْترضتُهُ عليه، وما يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتى أُحبَّه، فإذا أحببتهُ: كنتُ سَمْعَهُ الذي يسمعُ به، وبصَرَه الَّذِي يُبْصِرُ به، ويدَه الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، ورجلَهُ التي يمشي بها، ولئن سألني لأُعطينّه، ولئن ٱستعاذني لأعيذنّه»[1] وفي بعض الروايات: «ولسانَه الذي يتكلّم به وفؤادَه الذي يَعْقِلُ به».

والمعنى: أيّ شخصٍ يعادي واحداً من أوليائي، يَكُنْ ــ حتماً ــ عدوّاً لي، وأُعْلِمْهُ بالحربِ والقتلِ والعذابِ، وما تقرَّب مني وصار وليّاً لي أحدٌ بأحبَّ وأفضلَ عندي من الفرائضِ، لأنَّ تزكيةَ الأَخْلَاقِ وتصفيةَ البَدَنِ والمجرَّدَاتِ تحصل بها، ويستطيعُ الشخصُ دائماً ــ بفعل الأَعمالِ الزائدةِ، القلبيّةِ والبدنيّةِ ــ أنْ يتقرَّبَ مني حتى أكونَ له خليلاً، وإذا صِرْتُ له خليلاً أُصيِّرُهُ ولياً، فإذا صيرْتُهُ وليًّا ــ فمع قطعِ النظرِ عن أنّ جميعَ أعمالِهِ تكونُ مطابقةً للشريعةِ المطهَّرةِ ــ لا يَكْتَفِي بذلك، بل يسعى لأَنْ تكونَ جميعُ حركاتِهِ وسكناتِهِ تابعةً لخصوصِ الأَخْذِ والإجازةِ الخاصّةِ منّي، ويكونَ في كلِّ فعلٍ من أفعالِهِ تحتَ ٱسْمٍ من أسمائي: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، حتى لا يسمعَ ولا ينظرَ ولا يَلْمُسَ ولا يَشَمَّ ولا يَذُوقَ ولا يتكلَّمَ ولا يتعلَّمَ إلا

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة.

بإجازتي، بل جميعُ أفعالِهِ وأحوالِهِ وحركاتِهِ وسكناتِهِ تابعةٌ للإجَازةِ المخصوصةِ منّي، وأكونُ معه في كلِّ حالٍ وأُعينُهُ بالطريقِ المخصوصِ وأظِلُّه بٱسْمٍ من أسمائي، وأُعطيهِ كلَّ ما يطلبُهُ مني، وإذا التجأَ إليَّ في أيِّ شيءٍ يحصلُ مَرَامُهُ.

أيُّهَا الإِخْوَانُ والأَخواتُ! لو لم يوجدْ في بيانِ أحوالِ الأَولياءِ سوى هذا الحديثِ المذكورِ؛ لكانَ كافياً في ثبوتِ فضيلتِهم ـ مع أنه يوجدُ أحاديثُ وآياتٌ كثيرةٌ في بيان فضيلتِهم ـ قال الإمامُ الشعرانيُّ في كتابه «العهود المحمدية»: أيُّ وليٍّ كان بخيلاً كان في ظِلِّ صفةِ المانع، وإلاَّ فهو سخيٌّ بِالذَّاتِ، وأنا أقول: أيٌّ منهم كان سخيّاً فهو في ظِلِّ صفةِ المُعْطِي، والذين لا فَهْمَ لهم؛ ينكرونَ الأَمرينِ فيقولون: الأَوّلُ بخيلٌ والبخيلُ عدوُّ اللَّهِ، والثاني مبذِّرٌ ومسرِفٌ وسفيهٌ، ونقول: أَلَيْسَ لهم عِلْمٌ بأنَّ اللَّهَ جوادٌ، ومع ذلك فقد أغلقَ بابَ الرِّزْقِ على البعضِ، وهو ـ سبحانه ـ أعلمُ من جميع الناس بعواقبِ الأُمورِ، وقد أعطى النِّعَم الكثيرةَ للكفَرَةِ؛ فلا يقال له ـ بالنسبة إلى الأَوّلِ ـ: بخيلٌ، ولا ـ إلى الثاني ـ: مُسْرِفٌ؛ فكذا الشخصُ الوليُّ في ظِلِّ تلك الصفات.

والحاصل: أنّ الأَولياءَ[1] في ظِلِّ ٱسْمٍ من أسماءِ اللَّهِ الحُسْنَى؛ ففي وقتِ القَهْرِ تَحْتَ ظِلِّ القهّارِ، وفي وقتِ الرَّحْمَةِ تحتَ ظِلِّ الرحيمِ.

فلو قيل: يُفْهَمُ من ذلك أنّ الإِنسانَ العاديَّ البخيلَ يكونُ في ظِلِ المانع، ولو أَسرفَ كان في ظِلِّ المُعْطِي، أو قَهَر كَان في ظِلِّ القَهَّارِ، فما بَقِيَ محلٌّ لِلَّوْمِ؟! وأيُّ فَرْقٍ بين الوليِّ والشخصِ العاديِّ؟!

فنقول في جوابه: إنّ إرادَةَ اللَّهِ في أفعالِ الشخصِ العاديِّ تابعةٌ لإرادتِهِ أوّلاً وآخِراً، وفي أفعال أولياءِ اللَّهِ ـ بواسطةِ أنّ الوليَّ لا يُحِبّ إلاّ ما أَحَبَّهُ اللَّهُ ولا يريدُ إلاّ ما أراده اللَّهُ ـ تكون إرادةُ الوليِّ تابعةً لإرادةِ الحقِّ سبحانه؛ حتى لو أنهم أحبّوا شيئاً وأُعلموا أنّ اللَّهَ يُحِبُّ خلافَه؛ فهم يؤثرون ما أحبّه اللَّهُ على ما أحبّوه، ففعلُهم تابعٌ لحُبِّ اللَّهِ لا لِحُبِّ أنفسِهم، بخلافِ فعل الأَشخاصِ

---

(١) أي الكمل منهم فقط وأهل الإرشاد.

العاديينَ؛ إذ إنّ فعلهم تابعٌ لحبِّهم وإرادتهم، فيكون فعلُ الأولياءِ تحتَ ظِلِّ الأسماءِ وفعلُ النَّاسِ تحتَ مشيئتِهم وإرادتِهم.

وبِعُنْوَانِ التمثيلِ نذكرُ مثالاً لتقريب المسألةِ إلى الفهم ـ ولِلَّهِ المثلُ الأعلى ـ: لو قال السلطانُ لخادمِهِ أنت مختارٌ؛ فأيُّ شيءٍ تريدُ إعطاءَهُ لأيِّ شخصٍ تحبُّه فَأعطِهِ من خزائِننا! فلو لم يُعْطِ هذا الشخصُ شيئاً أو أسرفَ في العَطَاءِ، يكونُ هو فَقَطْ المسؤولَ عن فعلِ نفسِهِ. ولو قال السلطانُ لخادمٍ ثانٍ: أنت حافظٌ على الخزينةِ لكنْ ليس لك حقُّ التصرُّفِ، ولثالثٍ: لك التصرُّفُ فيها كلِّها فَاْصْرِفْ جميعَها، ولرابع: أنت جَلَّادٌ لك حقُّ القَطْعِ فَقَطْ، ولخامسٍ: أنتَ شفيعٌ وليس لك غيرُ الشَّفَاعَةِ وإصلاحِ النّاسِ، فَيَلْزَمُ على كلٍّ منهم أن يَفْعَلَ ما خُوِّلَهُ ولا يتجاوز عنه؛ فلو لم يفعلْ ما عُيِّن له، أو تَجَاوَزَ عنه يكونُ ملوماً!.

فكذا أمرُ اللَّهِ ربِّنا ـ سلطانِ السلاطينِ والأولياءِ ـ فمأموروه لا يَعْصُوْنَه فيما أمرهم به، ويفعلونَ ما يُؤمرون. وجميعُ ما يفعلونه، لا يفعلونه إلا من حيثُ إنه مأمورٌ به، لا من حيثُ إنه محبوبٌ ومرادٌ لديهم. وأمّا عوامُّ النَّاسِ فليسوا كذلك، بل أعطاهم القُدْرَة والإرادة للضِّدَّين، وبيّن لهم الحَسَنَ والْقَبِيْحَ، وأعطاهم من خزينتِهِ ما يصرفونَهُ؛ فيكونُ الإِسْرَافُ والتقتيرُ بِعُهْدَتِهِم، وإرادةُ اللَّهِ تابعةً لإرادتِهِم.

هذا؛ واْعلم بأنّ الإِفْرَاطَ والتفريطَ مذمومٌ في حقِّ الأولياءِ، بل يمكنُ أن يؤديَ إلى الكُفْرِ ـ أعاذنا الله منه ـ فبعضُ النَّاسِ يُفْرِطُون في شأنِهم، كما أفرط الكفرةُ في شأنِ النبيِّ ﷺ فقال بعضُهُم: هو مجنونٌ، وبعضُهم قال: بل هو ساحرٌ، وآخرون قالوا: يُحِبُّ الرياسةَ والاستيلاءَ؛ فبمصداق أنّ الشيخَ في القومِ كالنبيِّ في الأُمةِ؛ يَنْسِبُونَ إليهم ما نُسِبَ إلى النبيِّ ﷺ بل يَنْسِبُون إليهم أقبحَ من ذلك، مع أنّ عداوتَهم عداوةٌ مع اللَّهِ كما قال الحديثُ القدسيُّ السابقُ، واللَّهُ تعالى يقول في كتابه المجيد: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس: ٦٢]. ولقد عُلِمَ بالاستقراءِ أنّ الإِنكارَ على الأولياءِ

يكونُ باعثاً لخُسْرَانِ الدارينِ، وسبباً لسلبِ العلمِ وسدِّ القلبِ عن إدراك المعارف الربانيةِ، ويَحْتَمِلُ أن يؤدّيَ إلى الكفرِ؛ فقد ثَبَتَ بالتواتر القطعيِّ ــ كما قاله الشيخ ٱبنُ حَجَر في «فتاويه الحديثية» ــ:

حكى إمام الشافعية في زمنه أبو سعيد عبد الله بن أبي عصرون قال: دخلت بغداد في طلب العلم، فوافقت ٱبن السقا، ورافقته في طلب العلم بالنظامية، وكنا نزور الصالحين. وكان ببغداد رجل يقال له: «الغوث» يظهر إذا شاء ويختفي إذا شاء، فقصدنا زيارته أنا وٱبن السقا والشيخ عبد القادر ــ وهو يومئذٍ شاب ــ، فقال ٱبن السقا ونحن سائرون: لأسألنه مسألة لا يدري لها جواباً. وقلت: لأسألنه مسألة وأنظر ما يقول فيها. وقال الشيخ عبد القادر: معاذ الله أن أسأله شيئاً، أنا بين يديه أنتظر بركة رؤيته.

فدخلنا عليه فلم نَرَهُ إلا بعد ساعة، فنظر الشيخ إلى ٱبن السقا مغضباً، وقال: ويحك يا ٱبن السقا، تسألني مسألة لا أدري لها جواباً؟! هي كذا وجوابها كذا، إني لأرى نار الكفر تلتهب فيك. ثم نظر إليّ وقال: يا عبد الله، أتسألني عن مسألة لتنظرَ ما أقول فيها؟! هذا كذا، وجوابها: كذا، لتخرّن الدنيا عليك إلى شحمة أذنيك بإساءة أدبك.

ثم نظر إلى الشيخ عبد القادر وأدناه منه وأكرمه، وقال: يا عبد القادر، لقد أرضيت الله ورسوله بحسن أدبك، كأني أراك ببغداد وقد صعدت الكرسي متكلماً على الملإ وقلت: قدمي هذه على رقبة كلّ وليّ، وكأني أرى الأولياء في وقتك وقد حنوا رقابهم إجلالاً لك... ثم غاب عنا فلم نَرَهُ. قال: وأما الشيخ عبد القادر فقد ظهرت أمارات قربه من الله وأجمع عليه الخاص والعام وقال: قدمي إلخ، وأقرت الأولياء في وقته له بذلك، وأما ٱبن السقا، فإنه ٱشتغل بالعلوم الشرعية حتى برع فيها، وفاق فيها كثيراً من أهل زمانه وٱشتهر بقطع مَن يناظرُه في جميع العلوم، وكان ذا لسان فصيح وسَمْتٍ بهيّ فأدناه الخليفة منه وبعثه رسولاً إلى ملك الروم فرآه ذا فنون وفصاحة وسمة، فأعجب به وجمع له

القسيسين والعلماء بالنصرانية، فناظرهم وأفحمهم وعجزوا، فعظم عند الملك فزادت فتنته، فتراءت له بنت الملك فأعجبته وفتن بها، فسأله يزوجها له، فقال: إلا أن تتنصّر، فتنصّر وتزوجها، ثم مرض فألقوه بالسوق يسأل القوت فلا يجاب، وعلته كآبة وسواد حتى مرّ عليه من يعرفه فقال له: ما هذا؟ قال: فتنة حلت بي سببها ما ترى. قال له: هل تحفظ شيئاً من القرآن؟ قال: لا، إلا قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: ٢] قال: ثم خرجت عليه يوماً فرأيته كأنه قد حرق، وهو في النزع، فقلبته إلى القبلة فاستدار إلى الشرق، فعدت، فعاد، وهكذا إلى أن خرجت روحه ووجهه إلى الشرق، وكان يذكر كلام الغوث ويعلم أنه أصيب بسببه. قال ابن أبي عصرون: وأما أنا فجئت إلى دمشق فأحضرني السلطان الصالح نور الدين الشهيد وأكرهني على ولاية الأوقاف، فوليتها، وأقبلَتْ عليّ الدنيا إقبالاً كثيراً. . .

فقد صدق قول الغوث فينا كلنا.

وفي هذه الحكاية التي كادت أن تتواتر في المعنى لكثرة ناقليها وعدالتهم، فيها أبلغ زجر، وآكد ردع عن الإنكار على أولياء الله تعالى، خوفاً من أن يقع المنكر فيما وقع فيه ابن السقا من تلك الفتنة المهلكة الأبدية التي لا أقبح منها، ولا أعظم منها. نعوذ بالله من ذلك» ا. هـ.

فإن قيل: كان قولُ ابنِ السَّقَّاءِ مع عبدِ اللَّهِ إيماناً.

نقول: الإيمانُ ليس العلمَ فَقَطْ، بل يجبُ أن يكونَ مع العلمِ التسليمُ؛ مثلاً: لو عَلِمَ شخصٌ أن القمر مضيءٌ ولكنْ قال عِنَاداً أو ٱسْتِكْبَاراً: ليس بمضيءٍ، لا يقال له: مؤمنٌ بهذِه القضيةِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ولو قيل: إنّ البُغْضَ الموجِبَ لصيرورةِ الإِنْسَانِ كافراً مذمومٌ، ويكونُ رضاً بالكفر!.

فنقول في جوابه: أيُّ وليٍّ صار سبباً لكفرِ شخصٍ يكونُ تحتَ ظِلِّ صفةِ القَهَّارِ، كما مَرَّ تفصيلُهُ، ويكونُ ذلك الوليُّ تحتَ قَدَمِ حضرةِ نُوْحٍ وحضرةِ مُوْسَى ـ عليهما السلام ـ فقد قالا: اللهم ٱشْدُدْ قلوب قومِنَا بحيث لا يستطيعونَ الإِيمانَ فيعذَّبوا بأشدِّ العذاب.

وقد فصَّلْتُ هذا الموضوعَ في «حاشيتي على تفسير البيضاويِّ» في تفسير قول اللَّهِ تعالى: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨] بحيثُ أَزَلْتُ إشكالَ العزِ ٱبنِ عبد السلام.

وَكَتَبَ الإمامُ الشعرانيُّ في كتابه «العهود المحمدية»: أنه جاءَ عالمٌ مِصْرِيٌّ إلى حضرةِ السيِّدِ عليٍّ الخوّاصِ وقال له: أُريد أنْ أُسافر السَّنَةَ لزيارةِ بيتِ اللَّهِ الحرامِ، فقال له: لا أظنُّهُ صالحاً لك، فَضَحِكَ العالِمُ قائلاً: الحجُّ فرضٌ، فكيفَ تحصيلُ الفرضِ لا يكون صالحاً! ثم ذهب العالِمُ إلى الحجِّ، فقال السيِّدُ الخوّاصُ: يومَ الجُمُعَةِ ٱبْتُلِيَ العَالِمُ الفلانيُّ ببلاءٍ عظيمٍ، لأنه لما ٱشْتَغَلَ خطيبُ الحَرَمِ بِالخُطْبَةِ: ٱجْتمع الأَوْلِيَاءُ المسافرونَ حَوْلَهُ وكان أهلُ مكَّةَ بعيدينَ عنه، فقال العَالِمُ: هذه الجُمُعَةُ لا تكونُ صحيحةً؛ لأنّ المستوطنينَ الذين تَتِمُّ بهم الجُمُعَةُ لا يسمعونَ الخُطْبَةَ؛ فكان قولُهُ هذا سبباً لإخراجِ المأمورِ الأولياءَ من حولِ الخطيبِ وإقامةِ المستوطنينَ مكانَهم؛ فَغَضِبَ الأَوْلياءُ من هذا العمل وسدُّوا قَلْبَهُ عن قَبُوْلِ العِرْفَانِ، ثم بعد مُدَّةٍ رَجَعَ العالِمُ من الحجّ وجاءَ إلى السيِّد الخوّاصِ وقال له: لقد قلتَ إنّ هذا السفرَ ليس صلاحاً لي، مع أني ـ بواسطةِ هذا السفر ـ صَحَّحْتُ جُمُعَةَ مكَّةَ المكرَّمَةِ ومنعتُ فسادَها، ثم صار هذا العالِمُ منكراً على الأولياءِ وما مات على حالٍ حسنٍ.

فإن قيل: عَمَلُ هذا العَالِمِ من قبيل الواجباتِ فَغَضَبُ قلوبِ الأولياءِ كَانَ غيرَ حَسَنٍ!.

نقول في جوابه: إنّ هذا الأَمْرَ بالمعروفِ كان ناشئاً عن هَوَى النَّفْسِ وبطريقِ العُجْبِ والرِّيَاءِ وتحقيرِ الأولياءِ الموجودين هناك، وإلا فلا يَحْصُلُ

غضبُهُمْ لأنَّهم ـ كما مَرَّ ـ تابعون لإرادةِ اللَّهِ، ويستطيعُ الأولياءُ أن يوقعوا تلك الخُطْبَةَ في آذَانِ المستوطنين، وإن كانوا بعيدين عن الإمام.

والحاصل: أنّ أيَّ عَمَلٍ صَدَرَ عن الأولياءِ ـ ولو كان ظاهرُهُ مخالفاً للشريعةِ ـ فإنّ باطنه موافِقٌ لها وللحكمةِ الإلهية. وقد قصَّ اللَّهُ في قرآنهِ المجيدِ قصةَ صُحْبَةِ كليمِ اللَّهِ موسى للخَضِرِ ـ عليهما السلام ـ عبرةً للنّاسِ عِلْمَاً بأنّ نبوَّةَ الخَضِرِ غيرُ معلومةٍ؛ وذلك ليستفيدوا منها: أنّ بعضَ أفعالِ الأولياءِ وإن كان ظاهرُهَا قبيحاً ـ حتى لَدَى رسولٍ من أُولي العَزْمِ ـ فهي حسنةٌ وصائبةٌ في الواقعِ ونفسِ الأَمْرِ.

وقَدْ كَتَبَ الإمامُ الشعرانيُّ تفصيلَ هذا الموضوعِ في حواشي الكِتَابِ المذكورِ، وَذَكَرَ فيهِ أيضاً بإسنادٍ صحيحٍ: أنَّ الإمامَ البُلْقِينِيَّ ذهب مَرَّةً إلى المدرسةِ فرأى وَسَطَ الطريقِ تجمُّعَاً كبيراً فسأل عن سببِ الازدِحَامِ، فقالوا له: هنالك وليٌّ يبيعُ الحشيشَ. فقال: سبحَانَ اللَّهِ! بأيِّ دليلٍ يَبِيْعُ الوليُّ الحَشِيْشَ المحرَّمَ؟ لو جاءَ الدّجَالُ يتبعهُ أهلُ مِصْرَ. وذهب إلى المدرسةِ فنظرَ في نفسهِ فأحسَّ بأنه سُلِبَ منه العلمُ، وأنه لا يعلمُ شيئاً، فَحَزِنَ كثيراً وصار متحيِّراً لا يعرف تدريسَ الطلبةِ ولا يستطيعُ أنْ يُفْتِيَ، ثم جَاءَ إليه أَحدُ الأَوْلِيَاءِ وقال له: يا إمامُ، سَلَبَ عِلْمَك بائعُ الحشيشِ، فقال الإمام: أعلمُ أنّ علمي مسلوبٌ ولا أعلمُ كيفَ يكونُ بائعُ الحشيشِ وليّاً! فقال له: كما أنك تعرفُ أن أغلبَ أهلِ مِصْرَ مُعْتَادونَ على ٱسْتِعْمَالِ الحشيشِ، فقد جَاءَ الأَمْرُ الأَكيدُ من الواجبِ الأَقدسِ إلَى الأَوْلِيَاءِ بأنه يجب أن تُتْرَكَ تلك العادَةُ في مُدَّةِ أَرْبعٍ وعشرينَ ساعةً في تلك البَلْدَةِ، وتَعَهَّدَ ذلك الوليُّ بأنَّه يبيع الحشيشَ، وكلٌّ من ٱشْتَرى منه الحشيشَ وٱسْتعمله يتركه بعدَها إلى الأَبد؛ فيلزم عليك أن تَذْهَبَ إلى هذا الوليِّ، وتلتمِسَ منه العفوَ عنك، فقال له الإمام: أجعلُك شفيعاً لي عنده. فذهب الوليُّ إلى بائعِ الحشيشِ وطلب منه العفوَ عن الإمام، فقال له البائعُ: يجب أنْ يجيءَ الإمامُ ويصيرَ شريكاً لي في بيع الحشيشِ ثم أعفو عنه، فٱضْطُرَّ الإمام إلى مساعدتِهِ في بيعِ الحشيشِ، وقال له البائعُ: ٱشتغلْ أنت بالبيع وأنا

أشتغلُ بتطهير قلوبِهم، ثم قال الوليُّ للإمام: ليس لك عِلْمٌ فمن أين هذا العُجْبُ والكِبْرُ؟ فقد وضعتُ جميعَ عِلْمِكَ في كَبِدِ خَرُوْفِ مدرستِكَ، اْذْهَبْ وتُبْ واْغْتَسِلْ للتوبةِ وكُلْ كَبِدَ الخَرُوْفِ يرجعْ إليك عِلْمُك.

أيها الإخْوَانُ الأَعزّاءُ والعلماءُ العِظَامُ!! يوجدُ من أمثالِ هذه الحكاياتِ في الكتبِ المعتمَدَةِ الكثيرُ بحيثُ لا تَسَعُهَا ألوفُ القَرَاطِيْس، وأنا بنفسي جرَّبْتُ أكثرَ من ألفِ مرَّةٍ: أنّ الإخْلَاصَ لهم سببٌ لمزيدِ البَرَكَةِ وزيادةِ العِلْمِ ونفعِهِ وسعادةِ الدَّارَيْنِ، والإنْكَارَ عليهم سببٌ لِخَسَارَةِ الدَّارَيْنِ.

وإنني أعتقد أنَّ عِلْمَنَا القليلَ ـ لو وُجِدَ ـ فهو من بركاتِهِمْ وتوجُّهَاتِهِمْ خصوصاً هِمّة وتوجّه حضرةِ خليفةِ اللَّهِ الأعظمِ الشيخ علاءِ الدِّيْنِ العثمانيِّ.

فمثلاً: إنّ عِلْمِي كان يُسْلَبُ في كلِّ شهرٍ مَرَّةً، ولكنْ كانت مُدَّةُ سَلْبِهِ لا تزيدُ على عشرِ دَقائقَ، ولكنْ في سَنَةٍ سُلِبْتُ ساعةً ونصفَ الساعةِ فَكِدْتُّ أنْ أُجَنَّ؛ ولكنه رَجَعَ بَعْدَهَا مع زيادةٍ وكمالٍ؛ فظننتُ أنّ هذا تنبيهٌ وتهديدٌ لي حتى لا أكونَ مغروراً، وكأنهم يقولون لي: إن ما أعطيناك مستعارةٌ ونستطيعُ أنْ نَستردَّه عندما نريد، وقد نزيده إنْ أَردنا ذلك.

وفي السَّنَةِ الماضيةِ نَقَلْتُ وشرحتُ هذه الحالةَ لِحضرتِهِ فأجابني قائلاً: من يريدُ أَنْ يَصْقُلَ المِرْآةَ ويجلوَهَا يضعُ خِرْقَةً مَبلولةً على وجهها ويدلُّكُهَا، ففي تلك الحالةِ لا تكون المِرْآةُ قابلةً لِعكسِ أيِّ صورةٍ، لكنْ بعد كمالِ التصفيةِ تكونُ أكثرَ اْنْعِكَاساً من السابقِ بأضعافٍ مضاعفةٍ، فقلتُ: الأَمْرُ ما قاله حضرةُ الشيخ. وكان هناك أحدُ العلماءِ الفُضَلَاءِ فقال لي: هذا العملُ عَمَلُهُ فكيف لا يعلمُه؟.

إلا أنّ بعضَ العوامِّ يُفرطون في شأنِ الأَولياءِ؛ فيتصورون أنّ اللَّهَ كان تحتَ أيديهم وسلطتِهِمْ، بل تحت أيدي خلفائهم ـ والعياذُ باللَّهِ ـ وأُقْرِعَ في سمعهم أنّ اللَّهَ لا يستطيع أن يفعلَ شيئاً بدونِ مرشدِهِمْ وخلفاءِ مرشدِهم، وأنه يجري حكمُهُمْ على الله، ويتصوّرون أنّ رفعتَهم وتسافُلَهم، ووجودَ أولادهم

وعدمَهُ، وثروتَهم وفقرَهم، وجميعَ مقدَّرَاتِهِمْ هي تحتَ أيدي المُرْشِدِ وأعوانِهِ، ويكونُ رضاه رضاءَ لله، ولو كان هو راضياً عنهم تَتِمُّ أحوالُهُمْ ويدخلون الجنة ولا يحتاجون إلى شيء!! وهذا الإِفْرَاط مذمومٌ ـ أيضاً ـ كالتفريطِ بل يمكن أن يؤدّيَ إلى الشِّرْكِ، أعاذنا اللّهُ منه.

فيجبُ علينا أن نمشيَ بالطريقِ الوُسْطَى ـ لا هذا ولا ذاك ـ وأن نعتقدَ أنهم جماعةٌ مخصوصةٌ لهم عبوديةٌ وذِلَّةٌ خاصةٌ لربّهم؛ فلذا: يُحَقِّق اللّهُ مطالبهم، وبذا: صاروا رابطةً ووسيلةً وشافعينَ لقضاءِ حوائجِ النَّاسِ وهادينَ وقُدْوةً للمعتقدِيْنَ بولايتِهِمْ، وكانوا بجميعِ قُوَاهم وذَرَّاتِهم تحتَ سلطةِ الذاتِ الأَقْدَسِ، ولو عَلِمُوا أنّ اللّهَ لا يحبُّ دعاءَهم وشفاعتَهم لمتوسلِيهِم، لا يدعون ولا يشفعون، ويمتثلون بقول الله تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولا يدخلون أو يتعرضون لفعلٍ من الأفعال بدونِ الإجازة من الساحةِ القدسيةِ؛ فلذا حين قال أبناءُ يعقوبَ لحضرتِهِ: اُطلبْ من اللّهِ أنْ يَغْفِرَ لنا ما فعلناه مع يوسفَ حتى لا يبقى علينا حقُّ اللّهِ بل حقُّ يوسفَ فَقَطْ، قال لهم: سَوْفَ أستغفرُ لكم.

وهم لا يحبون العاصيَ غيرَ المحبوبِ عند اللّهِ، ولو كان من مخلصيهم ومعتقدِيهم، بل ولو صَرَفَ في خدمتهم كلَّ يومٍ الأموالَ الكثيرةَ، ويحبُّون أحباءَ اللّهِ ولو كان يعاديهم عداوةً حَقَّةً بعقيدتِهِ.

نُقِلَ لنا أَنَّ واحداً من النَّاس شَتَم بحضورِ وليٍّ من الأَولياءِ مرشدَ ذلك الوليِّ؛ فَغَضِبَ الوليُّ منه ثم بعدَهَا كَانَ هَذَا الوليُّ كلما يَصِلُ إلى الحضرةِ المحمديةِ حالَ المكاشفةِ؛ لا يتكلّم معه الرسولُ ﷺ بل يُعْرِضُ عنه، وصار هذا الوليُّ متحيّراً لا يعرف سببَ الإِعْرَاضِ عنه، حتى سأله يوماً عن السببِ فقال: إن السببَ هو ترجيحُكَ محبَّةَ مرشدِك على محبَّةِ اللّهِ ومحبتي، فقال الوليُّ: أستغفرُ اللّهَ، إنني واللّهِ أحبُّ مرشدي بمحبَّتِكُم، فقال له الرسولُ ﷺ: علامةُ ما قُلْتُ لك: أنّ فلاناً الذي شَتَمَ مُرْشِدَك يحبُّ اللّهَ ويحبُّنِي وأنتَ لا تُحِبُّه لكونِهِ

غيرَ مُحِبٍّ لمرشِدِكَ، فتاب الوليُّ من ذلك.

وكان أحد الأعيانِ المخلصينَ لي خائفاً من مصيبةٍ وصيَّرني شفيعاً في حضور حضرة علاءِ الدِّيْنِ لكي يَدْعُوَ له بالنجاة من هذا البلاءِ، فذكرتُ مَرَامَهُ لحضرةِ الشيخ، فما قَبِلَ، فقلت: يَا سيدي هو شخصٌ مخلصٌ ومحبٌّ لجنابِكم، فقال: هو ــ مع كونِهِ ظالماً ــ منكرٌ لوجودِ اللَّهِ، فكيف يجتمعُ حبي مع إنكارِ اللَّهِ؟ ولو ٱجتمعا لا يكون مفيداً، لكنَّ محبَّة اللَّهِ تُفِيْدُ ولو كان مُنْكِرَاً لي(١)، ثُمَّ قال حضرةُ علاءِ الدِّيْنِ: كَان أحدُ رؤسَاءِ عشيرةِ «الجوانرودي» وٱسمه: محمد بگ مخلصاً لحضرةِ ضياءِ الدِّيْنِ وجاءَ يوماً إلى حُجْرَةِ حضرةِ ضياءِ الدِّيْنِ، فدخل نازعاً عِمَامَتَهُ عن رأسه وضَارِباً بها الأَرْضَ وقائلاً: يَا أَسَدَ اللَّهِ، ٱلْتَجَأْتُ إليك. فقال حضرةُ ضِيَاءِ الدِّيْنِ: ما الأَمْرُ؟ قال: إنّ ناصرَ الدِّيْنِ شاه ــ سلطانَ إيران ــ أرسل ليلاً جيشاً كبيراً مع العشائر المعادية لي؛ فما ٱسْتطعتُ مقاومتَهم فَفَرَرْتُ منهم وَحْدِي ولاأعلم ما فعلوا بأهلي وأولادي وعشيرتي؟! فمكث حضرتُهُ مُدَّةً مراقباً ثم رفع رأسه قائلاً: إنْ شاءَ اللَّهُ يجيءُ دُسْتُور السلطانِ ناصرِ الدِّيْنِ بعد عصرِ اليومِ الفُلاَنيِّ بالعفوِ عنك وإجازةِ رجوعِك إلى موضِعك مع الاحترام.

وبعد ذَهَابِهِ قلتُ لحضرةِ ضياءِ الدِّيْنِ: يا سيديي إني أعتقدُ أن إظهارَ الكرامةِ بِهَذا الوضوحِ ليس بمحبوبٍ ولا بمُسْتَحْسَنٍ، فقال: يا بُنَيَّ، إنْ كنتَ متردِّداً في ولايتي فليس لي تردّدٌ في أحوالي؛ فعند المراقبةِ جاء حضرةُ الرسولِ ﷺ ومعه جماعةٌ من الأولياءِ لمعاونتي، فقال للرُّفَقَاءِ: أيٌّ منكم يستطيعُ الذهابَ إلى طَهْرَان ويُغيّرُ قَلْب ناصر الدِّيْنِ، ويأمرُهُ بأنْ يأمرَ برجوع محمد بگ ويعفو عنه ويحترمه؟ فقال: أحدُهُمْ ــ وٱسْمُهُ: الشيخُ إسماعيلُ وُلِيَاني ــ وهو من ساداتِ القادريّةِ: أنا أفعلُ ذلك بإجازتك يا رسولَ اللَّهِ؛ فذهب ثم رَجَعَ

---

(١) إنكاره ليس من حيث الإنكارُ على الأولياءِ، إنما من حيث إنكارُهُ على شخصٍ معيّنٍ دونَ معرفةِ ولايتِه.

وفصَّل فِعْلَهُ للنبيِّ ﷺ وقال: أخذتُ دَسْتُوْرَ العفوِ من المَلِكِ وأعطيتُهُ للقاصدِ، وبعد عصرِ اليوم الفُلاَنِيِّ يصل إلى «بيارة» مع الدُّسْتُوْرِ. فكان الأَمْرُ كما أخبر، وفي الوقتِ المعيَّنِ: جَاءَ القاصدُ ومعه الرِّسالةُ والدُّسْتُور الممهورُ بمهْرِ المَلِكِ وفيه العفوُ وإجازةُ الرجوعِ مع الاحترام، فصار محمد بگـ محترَما ومقبولاً كما كان من قبل، بل وأكثر.

ثم قلتُ لحضرةِ والدي في الخَلْوَة: يا سيدي، هذا ظالمٌ ومعاونته كما فعلتم لا أحبُّهَا[1]، فتعهد رضي الله عنه أن لا يعاونَ بعدَها الظالمين لهذا الطريق، وأنا لا أُعاونهم إن شاءَ اللَّهُ تعالى.

---

(١) إن معاونة حضرة ضياء الدين للرجل لم تكن من حيث ظلمه بل من حيث مظلوميته لكونه أخرج من داره وعن أهله بالقوة، فمن هذه الحيثية يستحق المعاونة. وأعتراض ولده حضرة علاء الدين كان من حيث ظاهر الأمر، فلذا وعده أن لا يعاون مرة أخرى ظالماً وذلك لكي تكون أفعاله بعيدة عن أشتباه الناس.

المبحث الثالث
حقيقة المرشد وأحواله وشروطه

المُرْشِدُ شخصٌ يدعو النَّاسَ بِحَسَبِ الظاهرِ إلى طريقِ الدِّيانةِ وسلوكِ الطريقةِ، والمُرْشِدُ على أربعة أنواعٍ:

الأَوَّل: المرشدُ الحقيقيُّ.

الثاني: المرشدُ الناقصُ المُشْتَبهُ.

الثالث: المرشدُ الناقصُ غيرُ المُشْتَبِهِ.

الرابع: المرشدُ الباطلُ المُبْطِلُ.

فالمرشد الحقيقي: هو مَنْ وصلَ إلى مَقَامِ الولايةِ وله ثمانيةُ أوصافٍ:

الأول: الولاية.

الثاني: أن تكونَ ولايتُهُ أصليةً لا ظِلِّية.

الثالث: أن يكونَ سالكاً لا مجذوباً؛ لأنّ صاحب الظِّلِّيِّ والمجذوبَ لم يريا المسالكَ والمهالكَ، ولا يعلمانِهَا حتى يعلِّمَاها لمريدِيهما فيحفظوها منهما.

الرابع: أن تكونَ مجرَّداتُهُ وماديّاتُهُ لا تَغْفُلُ عن اللَّهِ ــ لا في النومِ ولا في اليَقَظَةِ، لا في الصِّحَّةِ ولاَ في المرضِ، لا في الحياةِ ولا في المماتِ، لا في الخَلْوَةِ ولا في الجَلْوَة ــ ولو كانَ في الأشغال المهمةِ؛ بل يَفْنَى فيه.

يقال: إن المُفْسدِيْنَ عابوا شاه نَقْشَبَنْد في حضورِ السلطان حسين كوت؛

فقالوا: هو وأتباعهُ ٱنصرفوا عن المَسْنُوْنَاتِ ولا يفعلونَ إلا الفرائضَ، ومع هذا يدَّعي الوِلايَةَ والقُطْبِيَّةَ؛ فأحضرهم السلطانُ ــ بوسيلةِ المأمورِ ــ وقال لهم: ما شُغْلكُمْ؟ قالوا: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧﴾ [النور: ٣٧] يعني: نحن جماعةٌ من عبادِهِ الخاصّةِ المَمْدُوْحِيْنَ في القرآنِ الذين قال الله في حقّهم المُسَبِّحُونَ والذَّاكِرُون لي جماعة مع أنهم ــ بحَسَبِ الظاهرِ ــ يشتغلون بالتجارة وغيرها من الأُمورِ الدنيوية؛ إلاّ أنّ تلك الأَعمال لا تصدُّهم عن ذكرِ اللّهِ والثناءِ عليه، والاستغراق في بحار العِرْفَانِ والتجلّيات، وفعلِ الصلاة الشهوديّةِ والحضوريّةِ، وإعطاءِ الزَّكَاةِ، وفي كلِّ آنٍ يزدادُ خوفُهم وخشيتُهم ويتصوَّرون أنهم في يوم القِيَامَةِ؛ اليومِ الذي تتقلَّبُ فيه القلوبُ والأَبصار.

وتوضيحاً لهذه الصورة نقول: لو ٱنتظرَ شخصٌ حصولَ مطلبٍ مُهمٍّ له ــ كالرِّياسةِ، والوظيفة المهمة ــ وبُشّر بأنّ مطلوبَه يَحْصُل قريباً، كان هذا الشخصُ في تفكّرِ حصول مطلوبه دائماً؛ ولو كان مشغولاً بشُغُلٍ أو بأكلٍ لذيذٍ، فقلبُه ــ قطعاً ــ غيرُ مرتبطٍ بهما، وجميعُ حركاتِهِ الظاهرةِ تَحْصُلُ بمقتضى الطبعِ لا بِحَسَبِ المَيْلِ والحبِّ؛ لأنّ ميلَهُ مع المطلوبِ المُبَشَّرِ به الذي ينتظرهُ.

وإذَا ٱبْتُلِيَ شخصٌ ــ مثلاً ــ ببلاءٍ؛ كموتِ الولدِ أو بتهديدِ السلطانِ لَهُ: كان هذا المُبْتَلَى دائمَ التفكُّرِ والتدبُّرِ في بلائِهِ، ولو تكلَّم أو أكل كان تكلُّمُهُ وأكلُهُ بمقتضى الطبعِ والمُمَاشَاةِ مع النَّاسِ.

فَهَاتَانِ المسألتانِ من البديهيَّاتِ لكلِّ شخصٍ؛ لأنه يُحِسُّ بنفسه هاتينِ المسألتينِ؛ فكذلك الأَولياءُ: جميعُ حركاتِهِم وأفعالِهم بمقتضى الطبعِ، ومُمَاشاةً مع النَّاسِ؛ وإلاّ فجميعُ مجرَّدَاتِهِمْ وماديَّاتِهِمْ متوجهةٌ بشَراشِرِهَا إلَى جنابِهِ الأَقدسِ!.

ذكر صاحبُ «الإحياء» في «إحيائه» عن علي بن الموفق، قال: رأيت في النوم كأني أُدخلت الجنة، فرأيت رجلاً قاعداً على مائدة ومَلَكان عن يمينه

وشماله يُلْقِمانِه من جميع الطيبات وهو يأكل، ورأيت رجلاً قائماً على باب الجنة يَتَصَفَّح وجوه الناس فيُدخِلُ بعضاً ويَرُدُّ بعضاً، قال: ثم جاوزتهما إلى حديقة القدس. فرأيت في سُرَادِق العرش رجلاً قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف، فقلت لرضوان: من هذا؟ قال: معروف الكرخي، عَبَدَ اللَّهَ لا خوفاً من ناره، ولا شوقاً إلى جنته بل حُبّاً له، فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة. وذكر أن الآخرين: بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل.

وإنني أظنُّ أنّ ظاهر هذه الحكايةِ مُشْكِلٌ؛ لأن العلماءَ قد قالوا: إن أئمةَ المَذاهبِ ــ كالشافعيِّ وغيره ــ لهم كلِّهم رتبةُ الولايةِ، ووصلوا وقتَ الموتِ إلى رُتْبَةِ القُطْبِيَّةِ والغَوْثِيَّةِ، كما قاله الشيخ ابْنُ حَجَر في «الفتاوي الحديثية»؛ فتكون رتبةُ الإمامِ أحمدَ فوقَ رُتْبَةِ الكرخيِّ لا أقلَّ منه، مع أنَّ جميعَ العلماءِ اتفقوا على أنّ الأولياءَ في الدنيا والآخرةِ لا تشغلُهم اللذائذُ والأشغالُ عن الاسْتِغْرَاقِ في العِرْفَانِ؛ فكذا الاستغراقُ لا يمنعُ اللذائذَ كما فصَّلته في التمثيل وتفسير الآية.

وإنني أعتقدُ أنّ النقصَ المُسْتَفَادَ من هذه الحكايةِ لهذينِ الشخصينِ ــ أعني: الإمامَ أحمدَ والرائي[1] ــ فهو مُزَالٌ ومدفوعٌ بأنّ الرائي اشتغل بالعلوم الظاهرةِ ووصل بالسلوك إلى أوّل مقامِ الولاية، ولكنّ إفراطَه في العلومِ الظاهرةِ كان مانعاً من الوصولِ إلى جميعِ مقامات الولايةِ، فأنعم اللَّهُ عليه بأنْ أرَاهُ هاتين الصورتينِ حتى يصيرَ الاشتغالُ بالطريقةِ محبوباً لديه، والاشتغالُ بالعلوم الظاهرةِ غيرَ مقبولٍ بالنظر إلى الأول لديه، وذلك لكي يشتغلَ بجميعِ قُوَاه بالأَوَّلِ ويصلَ إلى مقامٍ يستعدُّ به لعلومِ المكاشفةِ والمراقبةِ. وقد كان هذا فعلَ اللَّهِ تعالى مع كثيرٍ من علماءِ الظاهرِ كما حَصَلَ مع الغزاليِّ ومولانا خالدٍ ذي

(١) أي الذي دخل في رؤيَاه الجنة؛ أما النقصُ المستفاد من الحكاية بالنسبة إلى الإمام أحمد؛ فمن حيث كونُ الكرخيِّ أفضلَ منه، وأما نقصُ الرائي: فمن حيث عدمُ صحةِ ما يستفاد من رؤياه.

الجناحين؛ حيث أنقطعا أوّلاً عن العلم الظاهريِّ والاشتغالِ بِهِ، ثم بعد حصولِ المقَامَاتِ والمَرَاتِبِ المُقَدَّرةِ لهم رَجَعَا إلى الاشتغالِ بالعلومِ الظاهرةِ كالسابقِ مع الاستغراقِ في علمِ المُكَاشَفَةِ.

الخامس: يجب أن تكونَ مكاشفَاتُهُ بطريقةٍ كأنَّ جميعَ عالمِ المشاهدةِ والخَلْقِ في نظرِهِ كالذَّرَّةِ، ولايخرجُ عن علمِهِ جميعُ ظواهرِ وبواطنِ الأشياءِ، ولو كان أحدُهُمْ في المشرقِ يستطيع أن يسمعَ الكلامَ النَّفْسِيَّ واللفظيَّ من جميع من كان في المغربِ، بل يلزم أن يكونَ صوتُ كلامِهِمْ في سَمْعِهِ أشدَّ من صوتِ القاذفةِ؛ حتى يعلمَ أحوالَ مريديهِ ويعينَهُمْ بإذن اللَّهِ تعالى.

السادس: يلزم أن يكونَ وجودُهُ الكليُّ على نحوٍ من التصرُّفِ والقُدْرَةِ بحيث يستطيعُ أن يُجَزِّأَ من وجودِهِ الكليِّ أرواحاً جزئيةً متعدِّدةً بعددِ مريديهِ حتى إنه لو كان في منتهى نُقْطَةِ الشرقِ، وواحدٌ من خلفائِهِ عَقَدَ البَيْعَةَ في أقصى نُقْطَةِ الغربِ مع ألفِ مريدٍ قَبِلوا إرشادهِ؛ فيلزم أن يُهَيِّءَ فوراً ألفَ روحٍ مجرَّدٍ جُزْئيٍّ يكونُ كلُّ وَاحِدٍ منها مع واحدٍ من المريدينَ؛ ليكون له هادياً ومعيناً له، وهذه هي حقيقةُ الرَّابطةِ والمَلَكَةِ.

السابع: يَلْزَمُ أن تصدُرَ الإجَازَةُ كرَّاتٍ ومرَّاتٍ متعدِّدةً، ويصدُرَ الأَمْرُ الأَكيدُ بإرشادِهِ من الحقيقة المحمَّدية ﷺ ومن جانبِ الذَّاتِ الإلهيِّ المقدَّس؛ فَلاَ يَقْنَعُ بالإجَازَةِ المقرَّرةِ بدونِ تَكْرَارِ الأَمْرِ الأكيدِ، لأنَّه يمكنُ أن تكونَ الإجازةُ والأَمْرُ الأَكيدُ بِعُنْوَانِ التَّجْرِبَةِ.

قال الإمامُ الشعرانيُّ في «العهود المحمدية»: ورد الأَمرُ الأَكيدُ من حضرةِ الذَّاتِ والحقيقةِ المحمَّديّةِ خطاباً للشيخ حسنٍ: بأنْ يذهبَ إلى مِصْرَ ويشتغلَ هناك بالإرْشَادِ؛ فأعْتَذَرَ منه، حتى كان يوماً جالساً عند البحر فأُمِرَ بالإرْشَادِ من مَقَام الأُلوهيَّةِ فأعْتذَرَ أيضاً، ثم أُمِرَ به أمراً عِتَابِيّاً فقال: إذا لم يكنْ هذا الأمر للتَّجْرِبةِ؛ فأنا أُدْخِلُ حقيبتي في البحر فَلْيَصِرِ الماءُ الذي يدخلُ فيه طِلاَءً، فصار الماءُ طِلاَءً، ثم قال: فَلْيَصِرْ مَاءً ثُمَّ طِلاَءً أيضاً.. قاله مراراً: فصار كما أراد؛

فعلم علماً يقينياً أن هذا الأَمْرَ أَمْرٌ حتميٌّ لا تجريبيٌّ، فَقَبِلَ خِلْعَةَ الإِرْشَادِ.

وقال الشيخُ عبدُ القادرِ الكَيلانيُّ ــ قُدِّسَ سِرُّهُ ــ: أُمِرْتُ تَكْرَاراً مِنْ مَقَامِ الأُلوهيّةِ والرَّسوليّةِ أن أُرْشِدَ؛ فتعلّلْتُ واْعتذرتُ إلى أنْ جاءَ إليَّ جماعةٌ من الأَنْبِيَاءِ والملائكةِ والأَولياءِ ومعهم ثمانيةُ آلاف وثيقةٍ ربَّانيّةٍ يوجدُ فيها: يا عَبْدَ القادرِ: أَنت في مَأْمَنٍ من مَكْرِي[1]، وأُعيِّنُك كاملاً وخلعتُ عليك خِلْعَةَ إجازةِ الإِرْشَادِ، وصيَّرْتُك مُفْتَخَراً به؛ فاْشْتغلْ بالإِرْشَاد. وأوقَعوها في لطيفةِ قلبي ثم جاءتْ روحانيّةُ حضرةِ الرَّسولِ ﷺ وقال: يا بُنَيَّ لِمَ تتعلَّل وتعتذرُ عن الإِرْشَاد؟ فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ: أنا شخصٌ عاصٍ لساني فارسيٌّ، ويوجدُ العلماءُ الجهابِذَةُ والأولياءُ الكُمَّلُ، وليس لي اْستعدادُ الإِرْشَاد، فَأَمرني بفتحِ فَمِي وأَدْخَلَ فيه ريقَهُ الشريفَ سَبْعَ مَرَّاتٍ ثم قال: اْذْهَبْ وأَرْشِدِ النَّاسَ من غيرِ خَوْفٍ من أحدٍ. ثمَّ ذهبتْ حضرتُهُ وجاءَتْ ــ فوراً ــ رُوحانيةُ الإمام عليٍّ، فقال لي: لِمَ لا تُرْشِدُ وتعتذرُ؟ فذكرتُ في خدمتِهِ ما ذكرتُ في خدمةِ حضرة النبيِّ ﷺ؛ فأمرني ــ أيضاً ــ بفتح فَمِي فَأَدْخَلَ ريقَهُ الشريفَ فيه سِتَّ مرَّاتٍ، فقلتُ لهُ: لِمَ لا تَزِيْدُ؟ فقال: علمتُ أنّ حضرةَ النبيِّ ﷺ فعله سبعاً، ورعايةً للأدبِ لا أفعله سبعاً!.

وإنني أعتقدُ أنَّ السَّبْعَ المرَّاتِ مِنْ حضرةِ النبيِّ ﷺ كانت سببَ إتمامِ تصفيةِ لطائِفِه السَّبْعِ: الرُّوْحِ، والقلبِ، والسرِّ، والخفيِّ، والأَخفىٰ، والنَّفْسِ، والوجودِ.

الثامن: أنْ توجدَ لهُ الإجازةُ من المُرْشِدِ الذي وصلَ في خدمتِهِ إلى الوِلاَيَةِ، وأنْ يكونَ إرشادُهُ طِبْقَ دُسْتُوْرِهِ، لكنْ لو وصلَ شخصٌ في حياةِ مُرْشِدِهِ إلى رُتْبَةِ الإِرْشَادِ وَمَاتَ مُرْشِدُهُ قبلَ أَخْذِ الإِجَازَةِ، أو وصل في حياةِ مُرْشِدِهِ إلى اْبْتِدَاءِ المُكَاشَفةِ ثُمَّ ماتَ مُرْشِدُه ووصلَ بِإِمْدَاءِ الأَرواحِ إلى رُتْبَةِ الإِرْشَاد ــ ويقال لهذا الطريقِ: الإِجْماعُ ــ فبالنسبةِ لهذينِ الشخصينِ: الإجازةُ الظاهرةُ ليستْ بلازمةٍ لهما، بل تكفي الشروطُ السَّبْعَةُ الباقيةُ.

---

(١) أي: أن أمرَ الإرشادِ أمر أكيدٌ وليس من قبيل التجربة.

لكنْ جُرِّبَ أَن أولادَ المُرْشِدِ ــ إذا كان لهم لياقةُ الإرشاد ــ فإجازةُ الولدِ المذكورِ لهذا المُرِيْدِ بالإِرْشَادِ مُهِمَّةٌ جِدّاً، وإلاّ يكونُ إرشادُ المُرِيْدِ المذكورِ قليلَ البركةِ ــ ولو كانتْ رتبته فوقَ رُتْبَةِ الأَبْنَاءِ ــ وينقطعُ دورانُ إرشادهِ قريباً؛ إمّا بموتِهِ أو بِقِلَّةِ فترةِ إرشادِهِ، وأولادُهُ ومريدُوه لا يصلونَ إلى رتبة الوِلاَيَةِ، ومع هذا قد يشتغلونَ بدعوى الإرشادِ الباطلة.

وجُرِّبَ ــ أيضاً ــ أنّ أولادَ المُرْشِدينَ الحقيقيين إذا وصلوا إلى رُتْبَةِ الإِرْشَادِ؛ يكونُ إرشادُهم أحكمَ وأنفعَ من إرشادِ باقي المُرْشِدين، ولو كانوا فوقَهم رُتْبَةً.

ونمثِّل هنا بمثالٍ يَلْزَمُ عليكم أن تَعْرِفُوه: وهو أنّ آباءَ مُرْشِدِنَا حضرةِ سراج الدِّين الثاني ــ أطالَ اللّهُ تعالى نِعْمَةَ بقائِهِ ــ لأنهم كانوا كلُّهم مرشدينَ حقيقيّينَ، ووجِدَتْ فيهم شروطُ الإِرْشَادِ بِأَكْمَلِهَا، صار الإِرْشَادُ فيهم مُحْكَماً منتشراً في جميع الممالِك الإِسْلاَمية ــ العربيةِ والفارسيّةِ والتُّرْكيّةِ وغيرِها ــ ووُجِدَتْ تَكَايَاهُمْ في جميعِ أنحاءِ العالَمِ، ودامتْ مُدَّةُ إرشادِهِمْ ما يقاربُ المائةَ والعِشْرِيْنَ سنةً، وأعتقدُ وأرجو أنْ يَدُوْمَ إرشادُهُمْ إلى يومِ القيامة، وتزدادَ مساحتُهُ ويَكْثُرَ المنتفعونَ بِهِ بِقَدْرِ ما يَسَعُ قُدرةَ مُرْشِدِ المُرْشِدِين. آمين!.

والحاصل: أن المرشدَ الحقيقيَّ شخصٌ له الشروطُ السابقةُ، وهذه أوّلُ دَرَجَةِ الإِرْشَادِ؛ لأنّ مراتِبَهُ كثيرةٌ لا نعرفُهَا نحن، ولكنَّ الأَولياءَ يعرفونها، وما عَرَفْنَاهُ من القرآنِ والحديثِ وكلامِ الأولياءِ والعلماءِ الأَحياءِ منهم والأَمواتِ كتبناه هنا.

فيا مَنْ تَدَّعون الأَرْشَاد! اُعلموا أنّ حقيقةَ الإِرْشَادِ هو ما كتبناه، وأيُّكُمْ يكون له هذه الشروطُ نَكُنْ خادمين له، ونشكرِ اللّهَ تعالى على وصولنا إلى خدمتِكم، ونطلبْ منكم أن تعفوا عن سوءِ معاملتنا معكم؛ لأنه نشأ عن عدمِ العلمِ لا الإِنْكَارِ، والنَّفسُ والشيطانُ قد خَدَعَانَا وَحَمَلاَنَا على إنكاركم لكونِنَا عُمْيَاً وصُمّاً وبُكْماً، فكنا معذورين، فوظيفتُكُمْ المُلاَينةُ والرَّحْمَةُ والهِدَايةُ

والغضُّ عن عيوبِنَا، فلاَ تَغْضَبُوا علينا.

وأَيُّكُمْ لم يصلْ إلى هذه الدَّرَجَةِ فاللَّهُ لا يَقْبَلُ منكم أن تَدَّعوا ذلك المَقَامَ بدونِ الاستعدادِ واللياقةِ والكسبِ والوصولِ؛ فلا تجعلوا أنفسَكم محلَّ عِقَابِ اللَّهِ وعتابِهِ، فقد قال تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] فتكونوا مشمولين بآية: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: ٣] ولا تطلبوا الدُّنْيَا بحيثُ تجعلونَ حصولَكم على حُطَامِهَا ومقاماتِهَا سبباً لوضعِ أنفسِكُمْ محلَّ غَضَبِ اللَّهِ؛ فتوقِعُوا بالمسلمينَ المساكينَ وتَزُجُّوهم في الضَّلاَلَةِ والجَهَالَةِ!.

مسألةٌ: عَلاَمَةُ المُرْشِدِ الحقيقيِّ:

مَنْ لَمْ يَكنْ لَهُ بصيرةٌ لاَ يَقْدِرُ على معرفةِ المُرْشِدِ، فضلاً عن أَنَّ للمرشدِ عَلاَمَاتٍ يُعْرَفُ بِهَا:

أولها: أنْ يكونَ لَهُ تصرُّفٌ في قلوبِ العلماءِ؛ فهم يُصَيَّرون بطيبِ القَلْبِ والرَّغْبَةِ التامَّةِ مريدينَ له، ويغتنمونَ فُرْصَةَ صحبتِهِ، ولا يكونون خادمينَ خوفاً على أنفسهم أو طمعاً في جاهِهِ ومالِهِ.

ثانيها: أنْ تزدادَ في قلوبِ زائريهِ ـ المعتقدينَ به ـ محبَّةُ اللَّهِ والدِّينِ والأولياءِ والشريعةِ عندَ وجودِهِمْ في خدمتِهِ، وتَقِلَّ في قلوبِهِم محبَّةُ الدُّنْيَا، وبعد المفارقةِ يبقى لهم هذه الحال إلى الأبدِ أو إلى مُدَّةٍ طويلةٍ أو قصيرةٍ.

ثالثها: أن يتوجَّهَ مريدُوه والمعتقدونَ به إلى الأعمال الحسنةِ ويبتعدُوا عن القبائح بِقَدْرِ الإمكَانِ. ولا يَلْزَمُ أنْ يكونَ جميعُ أتباعِهِ كذلك بل غَالِبُهُمْ؛ لأنه إنْ كانَ أتباعُ الرَّسُوْلِ ﷺ ـ وهو خَيْرُ المُرْشِدِيْنَ ـ المتمسكونَ بهديِهِ أقلَّ من القليلِ؛ فلا حَرَجَ أنْ يكونَ أتباعُ الأولياءِ كذلك. ولا يَضُرُّ ـ أيضاً ـ كونُ بعضِ خُدَّامِهِمْ وغِلْمَانِهِمْ فاسقينَ؛ لأنَّ غرضَهم من الخِدْمَةِ يكونُ الدُّنْيَا لا الدِّين.

ويَلْزَمُ أنْ يُعْلَمَ أن غَالبَ ـ بل جميعَ مريدي هذا الزَّمَانِ من الدراويشِ

والصوفيّةِ إلاَّ القليلَ منهم ـ هم من المُتَشَبِّهِ بالمُتَشَبِّهِ ـ كما فصّلناه سابقاً في المبحث الثاني ـ فلا يُتَوقَّعُ منهم الكَمَالُ في الدِّيَانَةِ والطريقةِ، بل يَلْزَمُ عليكم هدايتُهم ونصحُهُم على وجهٍ يُمكن أن يَصِيْرُوا تدريجياً من أهلِ الكمالِ والسلوك.

رابعها: أنْ لا يَتْرُكَ الأُمورَ الشرعيّةَ بدونِ الشُّبْهَةِ والدَّليل. ويتصف بمحبة الشريعةِ والعلم الظاهريِّ والعلماءِ ولو فعل بعضُهم القبائح[1]؛ إذ يفعلونها من حيثُ إسارُ النَّفْسِ والشيطانِ، لا من حيثُ العِنَادُ أو محبَّةُ المعصيةِ.

خامسها: أنّ الأَشخاصَ الذين رَأَوْهُ سابقاً إذا أرادوا ٱسْتحضارَ المُرْشِدِ لا يستطيعونَ ذلك دائماً، وإنما في بعض الأَوقاتِ فقط؛ وذلك لأنَّ المُرْشِدِ الحقيقيَّ مالكٌ لصورتِهِ[2] يستطيعُ أن يمنعَ إحضارَهَا عن بعضِ الأَشخاص أو في بعضِ الأَحيانِ.

وقد يقولُ بعضُ المعاندينَ والمغرورينَ الذينَ تسلَّطتْ عليهم النفسُ والشيطانُ: ليس المُرْشِدُ ضرورياً لسلوكِ طريقِ الدِّيْنِ بل يكفي القرآنُ والحديثُ والشريعةُ!!.

فنقول في الإجابةِ عن ذلك: إنّ ما ذكرتُم يكفي لتحصيلِ العَدَالةِ، وأمّا علمُ الطريقِ فهو عِلْمٌ مُهِمٌّ مستقلٌّ[3] عظيمٌ ـ كما فصّلناه سابقاً ـ ويَلْزَمُ لتحصيلِهِ أُستاذٌ ماهِرٌ. وكما أنّ عِلْمَ الظاهرِ لا يَحْصُلُ بدونِ المعلِّمِ والمشقَّةِ ـ

---

(١) والمقصود هنا: بعض العلماء الذين لم تتزكَّ أنفسهم وكانوا مقترفين للمعاصي لا من حيث محبة المعصية بل من حيث غلبة النفس الأمارة وماديانه القوية على روحهم المجردة، فتكون محبة المرشد لهم من ناحيتين: الأولى: كونهم مسلمين، والثانية: كونهم علماء حاملين لشريعة خير الأنام ﷺ.

(٢) أي الصورة المثالية المعروفة بالروحانية.

(٣) قول المؤلف عن علم الطريقة إنه مستقلٌّ لا يعني أنه خارجٍ عن الشريعة، فقد أثبت المؤلف في أول الكتاب عند كلامه عن أقسام الشريعة أنها أربعةُ أقسام وأن القسمَ الرابعَ منها هو الطريقة، ولذا فالمراد من الاستقلاليةِ هنا هو أنّ الطريقة عِلْمٌ مستقلٌّ عن الأقسامِ الثلاثةِ الباقيةِ للشريعة المطهرة.

ولو كان الشخصُ عادلاً ـــ فكذا عِلْمُ الباطنِ والطريقِ لا يَحْصُلُ بدونِ المعلِّمِ والمشقَّةِ الشديدةِ حتى قالوا: مَنْ لاَ شَيْخَ لَهُ فشيخُهُ الشيطانُ.

فَعُلِمَ من ذلك أنَّ التمسُّكَ بالمُرْشِدِ الحقيقيِّ فرضُ عينٍ على كلِّ شخصٍ[1]؛ حتى يكونَ له مُعِيناً في الدُّنْيَا والآخرة، وليُهَيِّءَ لَهُ وسيلةَ زوالِ الأَمْرَاضِ المُهْلِكَةِ للقلوبِ.

مسألةٌ: المُرْشِدُ الناقصُ المشتبه:

وهو شخصٌ ليس له جميعُ شروطِ الإرشاد الحقيقيِّ، ويَظُنُّ أن الإِرْشَادَ عبارةٌ عن السيادةِ، أو كونهِ من أولادِ الأَولياءِ، وأنّ الصلاحَ والعلمَ والمُكاشفةَ عبارةٌ عن التخيّلات والرُّؤى الصادقةِ، والولايةَ عبارةٌ عن رِقَّةِ القَلْبِ والعبادةِ والبُكَاءِ والأنينِ وأمثالِهَا، ويرى هذه الأَشياءَ في نفسه فيظنُّ أنه وليٌّ ويشتغلُ بالإِرْشَادِ.

مسألةٌ: المُرْشِدُ الناقصُ غيرُ المشتبه:

وهو شخصٌ يعلم أنّ حقيقةَ الإِرْشَادِ كَما ذُكِرَ سابقاً، وأنه ليس فيه؛ ولكنْ ـــ باْقتِضَاءِ سيادتهِ أو صلاحيّتِهِ الظاهرةِ أو كونهِ من أبناءِ الأَوْلِيَاءِ أو عشيرتِهم ـــ يشتغلُ بِإِرْشادِ الناس.

وهذانِ النوعانِ من المُرشدين مع كونِ ما هُمْ فيه مُضِراً بدينهم من جهاتٍ متعدّدةٍ، لكنْ لو كان مقصودُهم الأَصليُّ من ذلك الإِرشادِ هو إصلاحَ حالِ النَّاسِ وهدايتَهم إلى الله وشريعتِهِ، يكونون مأجورين من هذا الوجهِ، ويمكن أن يَحْسُنَ حالُهُمْ وحالُ أتباعِهم تدريجيًا.

---

(١) أي: بالمعنى الذي ذكرناه سابقاً من وجود الاستعداد عنده للإيمان الشهوديِّ بعد تحصيل الإيمان الاستدلاليِّ، وقد عُلِمَ أنّ الإيمان الشهوديَّ لا يمكن تحصيلُه إلا بالطريقةِ، وما لا يَتِمُّ الواجبُ إلا به فهو واجبٌ.

وعلامتهُ: أنْ يكونَ غالبُ أتباعِهِمْ تابعاً للشريعةِ ومائلاً إلى الله تعالىٰ، ولهم محبّةُ مصاحبةِ العلمِ والعُلَمَاءِ والطاعةِ، ويُبْغِضُون العاصينَ والفاسقينَ.

علماً بأنّ كلّ مَنْ لَمْ يصلْ إلى مرتبةِ الإرْشَادِ، وٱشتغلَ به: يُمكنُ أن يغلبَ عليه الحجابُ والغرورُ والكِبْرُ والعُجْبُ وحبُّ الرِّيَاسةِ وطلبُ المَقام؛ فيُطْبَعَ على قلبِهِ ويتدرّجَ في الاتصافِ بالأوصافِ الذميمةِ كالعُجْبِ والرِّياءِ وباقي الأوصافِ المذمومةِ، حتى لو نصَحَهُ شخصٌ؛ يدفعُ النصيحةَ بجميعِ قُواه، بل يمكن أن يجرَّه ذلك الإعجابُ إلى أن يدعُوَ الناسَ إلى نفسِهِ لا إلى ذَاتِ اللَّهِ؛ كما قال السيد أحمدُ الرفاعيُّ: «طقطقةُ النِّعَالِ حَوْلَ الرِّجَالِ تُدْخِلُهُم الضلالَ وتورثُهُم الوبالَ». لكنْ لو سعى أحدُ مريديهم في الطريقةِ يمكن أن تعينَه أرواحُ الأولياءِ ويحصلَ له في الطريقةِ علمٌ إجماليٌّ.

مسألةٌ: المُرْشِدُ الباطلُ المبطل:

وهو شخصٌ ليس له إلاّ مخادعةُ الناسِ وجَلْبُ القلوبِ إليه وجمعُ الأموال، ويتّبعُ هو وأتباعُهُ شهواتِ النَّفْسِ وَخَطَرَاتِ الشيطانِ، فحالهم في غايةِ القَبَاحة.

المبحث الرابع
العلاقة والتعامل بين المرشد والمسترشد

أيها الأَفَاضلُ الأَعزّاءُ!

إنّ الشُّغْلَ المُهِمَّ هو الأَمْرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ، وهو ــ مع قطعِ النَّظرِ عن الحاجةِ إلى الصلاحِ والعلم ــ يحتاجُ إلى العقلِ الكاملِ الجِبلّيِّ. وعِلْمُ هذا الشغلِ وحقيقتُهُ لا يحصلُ بمجرَّدِ مطالعةِ الكتبِ والدروسِ، بل يحتاجُ ــ أيضاً ــ إلى كيفيَّةِ إنْجَازِهِ وتدبُّرِ مواقعِهِ وطريق الانتفاعِ منه؛ لأنه قد يوجدُ كثيرونَ يأمرونَ وينْهَوْنَ النَّاس لِلَّهِ ــ فقط ــ وليس لهم غرضٌ سواه؛ لكن لعدمِ معرفةِ مَوْقعِ النَّصيحةِ وكيفيَّةِ إظهارِهَا ليس لهم منفعةٌ، بل لهم ضررٌ كثيرٌ؛ لأنهم ــ مع كونهم لا يُصلحون أحوالهم ــ يكونون سبباً لزيادة فسادهم.

والحاصل: أنّ الفاسقَ والجاهلَ والعاصيَ، كلُّهم مَرْضَى: كالأَعْمَى، والأَصمِّ، والتابعِ للنفسِ، والعدوِّ للتقوى.

والمرشدُ والعالمُ مِثْلُ الطبيبِ الماهرِ المتخصِّصِ في العينِ والأُذنِ والقلبِ، ويَلْزَمُ على الطبيبِ أن يُدَاوِيَ في الفصلِ الحارِّ بالأدوية الباردةِ، وفي الفصل البارِدِ بالأدويةِ الحارَّةِ، فكذا بالنظرِ إلى الطبائع الحارّةِ والبارِدةِ واليابسةِ والرَّطْبَةِ؛ فيحتاجُ الطبيبُ إلى معرفةِ عينِ المرضِ، وحالِ المريضِ، وأحوالِ مَنْطِقَتِهِ، والدواءِ المناسبِ لكلٍّ منها، ووقتِ إجازة الأدويةِ، وغيرِ ما ذَكَرْنَا.

ونحنُ نَذْكُر لكم بعضَ الآياتِ والأَحاديثِ المتعلقةِ بما ذُكِرَ، ثم نشرحُهَا ونوضِّحُهَا حتى تكونَ سبباً لمعرفةِ طريقِ الأَمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر.

عن أبي أُميَّةَ الشعبانيِّ، قال: سألت أبا ثعلبةَ الخُشنيّ فقلت: يا أبا ثعلبةَ،

كيف تقول في هذه الآيةِ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؟ قال: أما واللّهِ لقدْ سألتُ عنها خبيراً، سألتُ عنها رسولَ الله ﷺ فقال: «بل ٱئتمروا بالمعروفِ وتناهَوْا عن المنكرِ، حتى إذا رأيتَ شُحّاً مُطَاعَاً وهوىً متّبعاً ودُنيا مؤثَرةً وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه، فعليكَ بنفسك ودَعْ عنك العوامَّ؛ فإنّ من ورائكم أيامَ الصبرِ، الصبرُ فيه مِثْلُ قبضٍ على الجَمْرِ، للعاملِ فيهم مثلُ أجرِ خمسينَ رجلاً يعملونَ مِثْلَ عملِهِ».

وزادني غيره، قال: يا رسولَ اللّهَ: أجرُ خمسينَ منهم؟ قال: بل أجر خمسينَ منكم[1]. يعني: أنني سألت حضرةَ الرسولِ ﷺ: هل الأَمْرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ واجبٌ مع أنَّ المُسْتَفَادَ من الآيةِ الكريمةِ عدمُ وجوبِهِ؟! فقال في جوابي: ٱلتزموا الأَمْرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عن المنكرِ حتى تَرَوْا أَربعةَ أشياءَ:

أوَّلُهَا: إطاعةُ البخلِ؛ وهي أن يَصْرِفَ الناسُ أبدانَهم وأموالَهم في الحرام ولا يَصْرِفُوهَا في الطاعَاتِ والعباداتِ، وهذا هو البُخْلُ الحقيقيُّ.

الثاني: ٱتباعُ النَّفْسِ.

الثالث: ترجيحُ الدنيا على الدين.

الرابع: أن يرجِّحَ الناسُ رأيَهم على غيرِهم ولا يتَّبِعوا إلا آراءَهم الشخصيَّة.

فإذا رأيتُم هذه الأَربعةَ: فالأَحسنُ أنْ تشتغلوا بإصلاحِ نفوسِكم، وٱتركوا الناسَ ولا تأمروهم بالمعروفِ ولا تَنْهَوْهُمْ عن المنكرِ؛ لأنَّه ــ مع قطعِ النظرِ عن عدمِ تأثيره ــ يكونُ سبباً للفسادِ لأنه يجيءُ بعدَ هذا الزمانِ: زمانٌ الصبرُ فيه عن المعاصي مثلُ شَدِّ اليدِ على النَّارِ، لو عَمِلَ شخصٌ في ذاك الزَّمانِ عملاً صالحاً كان جزاؤُهُ جزاءَ خمسينَ رجلاً من صلحائكم.

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الملاحم، وأخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه وابن جرير والبغوي في معجمه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في «الشعب».

والحاصل: أنّ مقصودَ الحديثِ أنّ هذه الآيةَ تبيِّنُ أنه في بعضِ الأَوقاتِ يكونُ الأَمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ غيرَ مُفِيْدٍ.

وعن عمارةَ بنِ عمرو بن حزمٍ عن عبدِ اللَّهِ بن عمرو بنِ العاصِ قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشكُ أَنْ يُغَرْبَلَ النَّاسُ غَرْبَلَةً، وتبقى حُثالةٌ من النَّاسِ، قد مرجتْ عهودُهُم وأماناتُهم، وكانوا هكذا» ـ وشبَّكَ بين أصابعه ـ قالوا: فكيف نصنعُ يا رسولَ اللَّهِ إذا كان ذلك؟ قال: «تأخذونَ ما تعرفونَ، وتذرُونَ ما تُنْكِرُونَ، وتُقْبِلُون على خاصّتِكم، وتدعون عامَّتكم»[1].

ومعنى الحديثِ: إذا بَقِيْتَ إلى زمانٍ يكونُ إنسانُهم مِثْلَ مَنْخُوْلاَتِ الغِرْبَالِ، لا يبقى فيهم غيرُ الأَراذلِ، بحيث لا يوجدُ بينهم آثارُ العهودِ الإسلاميةِ وقُطِعَتْ كلُّهَا وصاروا متشابكينَ ومخالفينَ بعضَهم بعضاً؛ كيدَيَّ هكذا، فعليك بالحسناتِ وتركِ المنهياتِ واحفظْ أقاربَك الذين يَقْبَلُون قولَك بإرشادهم، وتكلَّم معهم بألطفِ كلامٍ، واهْدِهِمْ جميعاً، واتْركْ باقي النَّاسِ إذا عَلِمْتَ أنّ إرشادَك غيرُ مفيدٍ فيهم؛ بل موجبٌ للفسادِ فلا تأمرْهُمْ بالمعروفِ ولا تَنْهَهُمْ عن المُنْكرِ ذلك الحينِ.

وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ـ مرفوعاً ـ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيدِهِ؛ فإن لم يستطع فبلسانِهِ؛ فإن لم يستطع فبقلبِهِ، وذلك أضعفُ الإيمانِ»[2]. قال الإمامُ الشعرانيُّ في «العهود المحمدية» ـ نقلاً عن العرفاءِ ـ: إنّ عقيدتَهم: أنّ المرادَ بدفع المنكر بالقلب هو أن يغيّروه بالتوجُّهِ القلبيِّ الكائنِ للأَولياءِ، كما إذا مرّ أحدُ الأَولياءِ ببابِ بيتِ الخَمْرِ، فرأى فيه كُوزاً من الخَمْرِ فتوجَّه بالقلبِ إليه وَكَسَرَهُ؛ فيكون معنى قوله: «وذلك أضعفُ الإيمانِ» يعني: أنّ هذا العملَ عملُ شخصٍ قويٍّ ضَعَّفَ إيمانَهُ بأنْ يكونَ مِثْلَيْ إيمانِ باقي

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»، وإسناده صحيح، وأبو داود في كتاب الملاحم.
(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

الناس[1].

وكتبتُ في حواشيه: الظاهرُ أنّ المرادَ بالتغيير القلبيِّ أعمُّ من إنكارِهِ بالقلبِ كما يفعلُهُ غيرُ الأولياءِ، أوالتصرُّفِ كما يفعلُهُ الأولياءُ؛ حتى يَعُمَّ الحكمُ جميعَ النَّاسِ ولا يختصَّ بالأولياءِ.

و«الأَضْعَفُ» من الضَّعْفِ، وهو: ضِدُّ القُوَّة؛ لأنّ الغرضَ من الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْي عن المنكرِ، والمقصودَ الأَصليَّ منه: هو أنْ يخافَ النَّاسُ ويَنْتَهُوا عن المعاصي؛ ولو فَعَلَ الأَولياءُ هذا الأمرَ بالقلب لا يعرفُهُ الناسُ، ولا يَنْزَجِرُون عنهُ، ولا يَحصلُ الغرضُ من الأَمْرِ والنَّهْيِ، وترتيبُهُ كما ذُكِرَ شاهدُ صِدْقٍ على ما ذَكَرْتُ.

وقد ثَبَتَ في «صحيح البخاري» ـ نقلاً عن حضرةِ عائشةَ رضي الله عنها ـ: أنّ رجلاً ٱستأذنَ على النبيِّ ﷺ فقال: «ٱئذنوا له، فَبِئْسَ ٱبْنُ العشيرةِ» أو «بِئْسَ أخو العشيرةِ» ـ وقال مرَّةً: «رَجُلُ العشيرةِ»، ـ فلمَّا دخل عليه: أَلاَنَ له القولَ، فلمَّا خرج قالتْ عائشةُ: قلتَ له الذي قلتَ، ثم أَلَنْتَ له القولَ؟! فقال: «أيْ عائشةُ! شرُّ النَّاسِ منزلةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ: مَنْ وَدَعَهُ النَّاس ـ أو تَرَكَهُ النَّاسُ ـ ٱتقاءَ فُحْشِهِ[2]».

وعلى هذا: يكون معنى الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ أَكْرَمَهُ لشيئينِ؛

أَوَّلُهُمَا: أن اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ عَامَلَ النَّاسَ معاملةً سيئَةً، ولم يُكْرِمْهُمْ؛ والنَّاسُ يخافونَهُ.

والثاني: رجاءُ النبيِّ ﷺ أن يتغيَّر قلبُهُ بهذه المعاملةِ الحسنةِ ٱتِّبَاعاً لقوله تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٤] أي: يا موسى ويا

---

(١) أي: إنّ «أضعف» ٱسْتُعْمِل كفعلٍ، وليس بصيغة التفضيل؛ فكأنه قال: وذلك أضعفَ الإيمانَ.

(٢) الحديث متفق عليه، رواه البخاري ومسلم وأبو داود في الأدب، ورواه الترمذي في البر والصلة، وقال: حسن صحيح.

هارون! قولا لفرعونَ قولاً ليّناً لإمكانِ أن يتيقَّظ ويَقْبَلَ نُصْحَكُمَا ويخافَ من إنذارِكما.

والحاصل: أنّ الآمِرَ الفهيمَ والناصحَ الحليمَ واللّيِّنَ العليمَ؛ يصلُ إلى مَرَامِهِ لأنّ الناسَ يعشقونَهُ ويخافونَ من عِلْمِهِ وحِلْمِهِ وفِرَاسَتِهِ. وأمّا الشخصُ النّاصحُ الشديدُ العصبيُّ الغليظُ: فلا يصل إلى مطلوبِهِ، ولا يخافونَ منه، ولا يعشقونَه؛ لأنهم يعلمونَ أنه يُهْلِكُ نفسَهُ قريباً، أو يَكْسَلُ فلا يستطيعُ السيرَ إلى المراحِلِ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، يعني: لا تَسُبُّوا الأصنامَ بحضورِ عُبّادِهَا؛ حتى لا يَسُبُّوا اللَّهَ، لأنّ طبيعةَ البشرِ أنْ ينتقمَ من سابِّ محبوبه بِسَبِّ محبوبِهِ.

قال البيضاويُّ وغيرُهُ من المفسرين ـ في هذه الآية ـ: هذه الآيةُ دليلٌ على أنّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عن المنكرِ لو أنجرَّا إلى عِصْيَانِ شخصٍ؛ يكونانِ مذمومينِ ويجبُ أن يُتْرَكَا.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥﴾ [سبإ: ٢٥] أي: يا محمَّدُ قل للكَفَرَةِ: لا تُسألون عن معاصينا ولا نُسأل عن أعمالِكم؛ سمّى جميعَ أعمالِهِمْ من الطاعة والعِصْيَانِ معصيةً[1] ولم يُسَمِّ معاصيَهم معصيةً؛ بل سَمَّى كُفْرَهم وفِسْقَهم عَمَلاً»[2].

قال المفسرون: هذه الآيةُ تدلُّ على أنه يجب أن يقابِلَ المحقُّ أباطيلَهم مقابَلَةً طيّبَةً؛ بأنْ يَنْسُبَ الضَّعْفَ والقبائحَ إلى جانبِهِ، والقُوَّة والشرفَ إلى المقابِلِ المبطل[3]؛ لأنَّه كما أنّنا نعتقدُ أنّ دينَهم باطلٌ، فهم يعتقدونَ أنّ دينَنا

---

(١) وذلك من باب هضم النفس وأستجلاب قلوب الكفرة للإيمان.

(٢) من باب إطلاق العام على الخاص، إذ العمل قد يكون كفراً وفسقاً أوإيماناً وطاعة، والحكمة من ذلك تأليف قلوبهم وجلبها إلى الإيمان.

(٣) شرط عدم الإخلال والتنقيص من شعائر الله، وعدم تعظيم طقوس الكفر والضلال.

باطلٌ، لذا: لو سَمَّيْتَ دينَهُمْ بالأسْماءِ القبيحةِ يُسَمُّون دينَك بأقبحَ انتقاماً لعقيدتِهِمْ.

قال الإمامُ الشعرانيُّ في «العهود المحمدية» ـ في مبحثِ سياسةِ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المنكر ـ: كان أحدُ أصدقائي له حاجةٌ في إدارة المَكْسِ[1] ـ وكان رئيسُهُ نصرانياً ـ وطلب مني أنْ أكونَ شفيعاً له في تحصيلِ مطلوبِهِ؛ فكتبتُ له رسالةً فيها: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُهُ؛ تدخل إن شاءَ اللَّهُ تعالى الجنَّةَ مأجوراً. فلمَّا اطلعَ عليها بعضُ العلماءِ غيرِ المتفكرين: كفَّرُوني وقالوا: إنّ الشعرانيَّ وَعَدَ الكافِرَ دخولَ الجنَّةِ وسلَّم عليهِ؛ وما فَهِمُوا أنّ سَلَامِيَ عليه مبنيٌّ على تقديرِ إسلامه ودعوتُ له بأنْ يؤمنَ ويَدْخُلَ الجنَّةَ، ولو كتبتُ له صراحةً: أطلبُ من الله أنْ يصيِّرَك مسلماً ويُدْخِلَك الجنَّةَ لَغَضِبَ قَلْبُهُ وَلما تقبَّلَ رجائيَ وشفاعتي لصديقِي عندَهُ.

وخلاصة ما ذكر: أنّ الآياتِ والأحاديثَ وكلامَ الأولياءِ والعلماءِ في مبحث الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَرِ كثيرةٌ وخصوصاً آية: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ [الأعلى: ٩] فهي كافيةٌ في هذا المجالِ، والمُسْتَفَادُ من مجموعِهِم: أنّ الأمْرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عن المُنْكَرِ مشروطٌ بشروطٍ؛ منها:

أوّلاً: الاستطاعةُ؛ أي: أنْ تكونَ له قُدْرَةُ نوعِ المأمورِ، وأنْ لا يوجدَ مانعٌ؛ فلو انتفتِ القدرةُ أو وُجِدَ المانعُ: فهو ليس بواجبٍ، فمع قطعِ النظرِ عن عدمِ وجوبِهِ إذا توهَّم منه وجودَ الفسادِ: كان مكروهاً، أو تحقَّقَ: كان حراماً.

ثانياً: ظنُّ التأثيرِ؛ فلو عَلِمَ أنه لا يؤثرُ يكون لغواً، بل يكون في بعضِ الأوقاتِ محرَّماً.

ثالثاً: أنْ يكونَ عَمَلُهُ على وجهِ المحبَّةِ واللِّينِ، لا بالخشونةِ والعصبيةِ؛ بل يمكن أن يكونَ في حالِ العصبيةِ حراماً أو مكروهاً كالقضاءِ والفتوى.

---

(١) أي: الضريبة.

رابعاً: أن لا يَفْضَحَ النَّاسَ، ولا يقولَ لمرتكبِ القبيحِ ـ بحضور الناس ـ: إنك فعلتَ هذا الفعلَ القبيحَ، بل إما أن يقولَ بين جماعةٍ فيهم المرتكبُ ـ دون توجيهِ الخطابِ إليه ـ: إن العملَ الفلانيَّ مذمومٌ في نظرِ الشريعةِ الإسلامية ويعاقَبُ صاحبُهُ بالعقابِ الفلانيِّ؛ فإن آمتنع المرتكبُ بهذا النحوِ من الموعظةِ فَبِهَا ونِعْمَتْ، وإلاّ فيطلبَ المرتكبَ على آنفرادٍ ويقولَ له: أنت شخصٌ مؤمِنٌ صالحٌ لو رأيتَ شخصاً يشربُ الخمرَ فآمنعْهُ ـ والحالُ أنه شاربٌ للخمرِ ـ فَيَخْجَلَ، وقد يقول في نفسه: إن هذا العالِمَ يظنّ فيَّ الصلاحَ ويطلبُ مني الأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عن المنكرِ؛ فعليَّ أن أتْرُكَ المُسْكِرَاتِ لكي أستطيعَ أنْ آمُرَ النَّاسَ بتركِهَا. ثم يقول له مرَّةً أُخْرَى خِفْيَةً: لا تصاحبْ مرتكبي القبائح لئلاً يؤثِّرَ فيك سوءُ عملِهِم؛ فتكونَ منعكساً منهم. أو يقول له: لا يَلِيْقُ بمثلِكم أنْ يُسْنَدَ إليه مثلُ هذا العملِ وإنني أظنُّ أنه مفترىً عليك.

فمع رعاية مثلِ هذه المقدِّمَاتِ يكون الأَمْرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المنكرِ واجباً على كل شخصٍ سواءٌ كان متعذِّراً أم لا؛ لأنَّه لا يكونُ سبباً للفسادِ وَغَضَبِ الطَّرَفِ الآخرِ، ثم إنْ لم يَنْزَجِرْ هذا الشخصُ بما ذُكِرَ، فلا يبقَى على غير المستطيع شيءٌ آخرُ من الإرشاد، وأما المستطيعُ: فيجب عليه أن يقولَ للمرتكبِ في الخَلْوَة: إن لم تَتْرُكْ هذه المعصيةَ أُعَذِّبْكَ، فإنْ فعلها ثانيةً، يهدّده عَلَنَاً، فإنْ لم ينزجرْ يُنَجِّزُ تهديدَهُ ويفضحُهُ ويعاقِبُهُ عقاباً مناسباً لِعِصْيَانِهِ.

خامساً: أنْ لا يتحرَّى عِصْيَان الناسِ.

سادساً: أنْ يكونَ مقصودُهُ من الأَمْرِ بالمعروفِ رِضَاءَ اللَّهِ تعالى فقط، لا تحصيلَ مُشْتَهَيَاتِ نفسِهِ، أو عقابَ المرتكب كما هو حاصل في زماننا هذا إذ قد يرتكبُ المرءُ المعاصيَ والأمورَ الكفريةَ، ومع ذلك تمدحه؛ لأنه يُحْسِنُ إليك ولا تقبِّحُ أعماله ولا تبيِّنُ سوءَ عقيدتِهِ، بل على العكسِ، فقد تقول عنه: هو بِسْطَامِيُّ زمانِهِ. ثم لو فعل شخصٌ آخرُ جميعَ الطاعاتِ والعباداتِ وكانتْ جميعُ حركاتِهِ موافقةً للشريعةِ وأنت لا تحبُّه لمخالفته مقتضى طَبْعِك: فأنت تذمُّهُ

وتقبّحُ جميعَ أعماله حتى قد يجرُّك ذلك إلى أن تَنْسُبَ إليه الكفرَ الخفيَّ!.

سابعاً: أن لا يكونَ الفعلُ المنكرُ ذا شُبْهَةٍ شرعيةٍ، أي: بأنْ يكونَ صحيحاً في بعضِ المذاهب.

فمثَلاً: لو رأيتَ رجلاً لَمَسَ ٱمْرَأَةً أجنبيةً ثم صلَّى دون تجديدِ وضوئِهِ؛ فليس لك الإنْكَارُ عليه، لأنه قد يكونُ حنفيّاً معتقداً عدمَ ٱنتقاض وضوءِ مَنْ لَمَسَ ٱمْرَأَةً أجنبيةً.

ومثلُ ذلك: إنكارُ بعضِ العلماءِ على عَمَلٍ كثيرٍ مِنْ أهلِ الطريقِ علماً بأنَّ لهم شُبْهَةً شرعيةً.

ثامناً: أن لا يكونَ ذلك الناهي متلبِّساً بذلك المَنْهِيِّ عنه، وإلاّ فكيف يستقيمُ الظِّلُ والعودُ أعوجُ؟!

تاسعاً: أن يكونَ فعلُ المنهيِّ عنه معلوماً قطعاً، لا أن يكونَ شائعاً على ألسنةِ الفاسقينَ ومَنْ يُسِيءُ الظَّنَّ بالمسلمين، فقد قال تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[الحجرات: ٦] أي: إنْ أخبركم فاسقٌ بنبأ فتحقّقوا منه ولا تقبلوه منه بدونِ سَنَدٍ، وقد ثَبَتَ في «صحيح مسلم» وغيره قولُ النبيِّ ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدِّث بكلِّ ما سمع»[1] وفي روايةٍ: «كفى بالمرء إثماً»[2]، أي: إذا أراد شخصٌ أن يكذبَ فيكفيه لتحصيلِ مطلوبه: أن ينقلَ للنَّاسِ كلَّ ما يسمعُ إن لم يعتقدْه كاذباً، فإنْ نقل للنَّاسِ شيئاً سَمِعَهُ وٱعْتقد كَذِبَهُ يكون نقلُهُ عصياناً ـــ أيضاً ـــ.

مسألةٌ: خطاب للعلماء والمرشدين:

أيُّهَا العلماءُ والأولياءُ!! نفسي فداءٌ لكم!! أنظروا بدقةٍ وإنصافٍ تعلموا أنّ الأشياءَ الأربعةَ التي ذكرَها النبيُّ ﷺ في تفسير قول الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ

---

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) رواه أبو داود والحاكم في «مستدركه».

أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] ثَبَتَتْ وتحقَّقَتْ عندكم وتُبْصِرُونها بعيونِكم وتعلمون أنّ قلوبَ النَّاسِ علاها صدأُ العِصْيَانِ والقَسْوَةِ وٱزْدادتْ فيها قُوَّةُ العِصْيَانِ والكفرِ والبِدْعَةِ، فصار المَقَامُ مقامَ أن يُصْلِحَ الشخصُ نفسَهُ ولم تبقَ قُوَّةُ الإِجْبَارِ لأَحدٍ حتى يستطيعَ أنْ يغيِّرَ المنكراتِ باليدِ أو بخشونةِ اللسان وأن يهديَهم بهما، وما بَقِيَ في تحصيلِ هذا المَطْلَبِ المُهِمِّ إلا المُلاَينةُ والسياسةُ المقبولةُ في تغييرِ المنكرات.

فَمَا يَفْعَلُهُ بعضُ الوعَّاظِ من غِيْبَةِ المُرْتَكِبِ وتعييبِهِ لا يُفيدانِ إلاّ الفسادَ.

أنتم أَيُّهَا العالِمون والمرشِدُون تظنُّون وتعتقدونَ بأنفسِكم أنكم هُدَاةٌ وناصحونَ وخلفاءُ اللَّهِ ورسولِهِ ووكلاءُ اللَّهِ ورسولِهِ، ولكنْ لا تُراعونَ أَقوالَ اللَّهِ ورسولِهِ وقتَ الأَمْرِ بالمعروفِ، ويقعُ بعضُكم في عِرض بعضٍ ويغتابُ كلٌّ الآخرَ ويسخرُ منه، وقد يَشْتُم العالمُ شيخاً؛ فيردُّ منتسبو الشيخ بشتمِ الإمام الشافعيِّ جهلاً، أو يسبُّ مريدو شيخٍ عالماً؛ فيردُّ تلاميذُهُ ذلك بسبِّ شاه نَقْشَبَنْد وعبدِ القادرِ الگيلانيِّ والطريقةِ؛ ظانِّينَ أنّ هذا التقابُلَ والتكافُؤَ ردٌّ للمَظَالِمِ وأمرٌ بالمعروفِ وموجِبٌ لتوسعةِ ونشرِ الشريعةِ والطريقةِ.

وكلٌّ منكم يعلم أنّ العلماءَ قد صنّفوا في الأَمْرِ الجُزْئيِّ ونازعوا فيه منازعاتٍ كثيرةً، فمع أنه ليس له منفعةٌ جزئيةٌ بل له مفاسدُ كثيرةٌ، ولكنْ لو تباحثُوا وتناقشُوا متوادِّين متحابيّن بحيث يتمنّى كلُّ واحدٍ منهم أن يظهرَ الحقُّ على يدِ صاحبِهِ لا على يدِهِ؛ لكان ذلك أنفعَ لهم وللمسلمين.

وكذلك ٱجتهدَ بعضُ المشايخِ في تعييبِ وإغضابِ بعضِ العلماءِ لكنَّ الشريعةَ الغراءَ حفظتْهُمْ عمَّا يُضِرُّ بهم.

والحاصل: أنه عُلِمَ وجُرِّبَ مراراً أنّ كلَّ واحدٍ منكم ما ٱستطاعَ حتَّى الآنَ أن يضعَ مخالفَهُ تحتَ رجلِهِ ويرتفعَ عليه، بل جميعُ ما فعلَهُ هو إهانةُ خصمِهِ وجعلُ المسلمينَ متكدِّرينَ ومنكرينَ للشريعةِ أو الطريقةِ؛ بحيثُ يقولون: لو كانوا صادقينَ لَمَا ٱخْتَلَفوا، لأنّ جميعَ الطرقِ من الشريعةِ، والطريقةُ موصلةٌ إلى

اللهِ تعالى.

فلذا: نطلبُ من كلِّ المشايخِ والعلماءِ أن يكونَ مقصودُهم ذاتَ اللَّهِ، وأن يخوِّفوا مُرِيْدِيهم ومُخْلِصِيْهِمْ من غَضَبِ اللَّهِ وعذابِهِ، وليراقِبُوه ويطلبوا رحمتَه وعَفْوَه، وليعلِّموهم ويفهِّموهم: أن علامةَ الخوفِ والرَّجَاءِ: تركُ الذنوبِ وفعلُ الطاعاتِ، وأما مجرَّد القولِ بالخوفِ والرَّجَاءِ منه مع تركِ المأموراتِ وفعلِ المُنْكَرَاتِ: فهو عينُ الاستهزاءِ بالدِّيْنِ وصاحبِهِ، نعوذُ باللَّهِ من ذلك.

وٱطلبُوا من مُرِيْدِيكُم التقرُّبَ من العلماءِ ورغّبوهم العملَ بموعظتِهِمْ وبقبولِ هدايتِهم، وليجتنبوا كلَّ ما قد يكون تنقيصاً أو تجريحاً في حقّ العلماءِ ـ حتى فيما يدور بينهم من الأَحاديث ـ لأنّ العلماءَ حاملو شريعةِ نبيِّكم وقد حصَّلوا هذا العلمَ بمشقةٍ وذِلَّةٍ، وجمعوا معاشَهم ووسيلةَ كسبِ عُلومِهِم من أبوابٍ شتَّى، ثم بعدَ تكميلِ وتحصيلِ دورسِهِم يكونون أئمةً وعلماءَ ومدرسينَ؛ حتَّى إنهم لا يشبعونَ وأهلَهم من الخُبْزِ، ومع هذا يُعَامَلُون معاملةً سيئةً ويُسْخَرُ بهم، وهم يتحمَّلون المشاقَّ ولا يخرجون عن مسلكِهم؛ مع أنَّه لو خرجوا عنه ودخلوا في إدارةٍ من إداراتِ الحكومةِ يحصلُ لهم ثروةٌ كثيرةٌ في مدَّةٍ قصيرةٍ كما رؤي مِرَاراً وجُرِّبَ في أغلبِ الحكوماتِ الإسلامية.

فلا إنصافَ لك أيُّهَا المُرشِدُ ـ الَّذِي تدَّعِي خلافَةَ اللَّهِ ـ إن كُنْتَ تُهِيْنُ العالِمَ الذي حَفِظَ دينَك ولم يقبلْ أن يغيِّرَ ـ قَدْرَ أَنْمَلَةٍ ـ ما كان عليه الدِّينُ حالَ التُّزولِ على حضرةِ الرسولِ ﷺ، مع قبول الشدائد.

ومن الأُمورِ الحاصلةِ في زمَانِنَا ـ مثلاً ـ: أنه لو وجد في بَلْدَةٍ أو مَنطِقَةٍ مرشدونَ كثيرونَ؛ فلو ٱتبع العالمُ واحداً منهم بأن أظهر ٱعتقادَه به وصار يتردَّد إليه، فيحبُّهُ ذلك المُرْشِدُ في حينِ يبغضُهُ الباقون ويذمُّونَه ويَعِيْبُونَه، ولو لم يتبع العالمُ واحداً منهم يصير هو وأتباعُهُ مذمومينَ عندَهم، وقد يقولون عنه: هو منكرٌ كافرٌ!! ثم لوترك عادَتَه السابقةَ وذهبَ في خِدْمَةِ الشيخِ وٱدَّعى أنه صار

مريداً له يمدحونَه ويُطلقون عليه الألقابَ والمناصبَ العالية!.

فهل هذا من أخلاقِ الإرشادِ وآدابِه؟! وهل هذه الخلافةُ هي لِلَّهِ تعالى؟! فنطلبُ منكم يَا مَنِ آدّعيتُم الإرشادَ والولايةَ والمشيخةَ؛ أن تكونوا محبِّين للعلماءِ لِلَّهِ وفي اللَّهِ فمُدُّوا إليهم يدَ الوَحْدةِ والاتفاقِ، وعلى العلماءِ بدورهم أن يتركوا لِلَّهِ وفي اللَّهِ التعصّب والأنانيةَ والخُشونةَ، ويسلكوا طريقَ الأمر بالمعروفِ بطريقِ اللينِ والمجادلةِ الحسنةِ، ويجعلوا ذلك خُلُقاً لهم ولطَلَبَتِهم، وليتيقّنوا بأنّ الخشونةَ تَضُرُّهم ولا تنفعُهم إذ كلّمَا آزدادتِ الخشونةُ آزدادتْ أوامرُهُمْ في الفسادِ والضَّياع.

وعلى العلماءِ أن يُدَاروا المرشِدَ وأتباعَهُ ولو عَلِمُوا أنّ مُدَّعي الإرشاد لا يستحقُّه، مع أننا نتمنَّى من اللَّهِ أن يكونَ أهلاً له رحمةً بالمسلمين، فلا يعيبُوه ويغتابُوه بين الناسِ، ولو سُئِلَ أحدُهُم عنه فليقلْ: ليس لي عينُ المُدْرَكِ للباطنِ والحقيقةِ حتى أعرفَهُ، وليسعَ باللينِ والمْلاَطَفةِ لهدايةِ ونُصْحِ هذا المُدَّعي وأتباعِهِ، وحَمْلِهم على آتباعِ الشريعةِ بِقَدْرِ الإمكان، ولا يتوقَّع أنْ يستطيعَ إرشادَ الناسِ أو واحداً منهم إلى آتّباع جميعِ التكاليفِ الشرعية.

وآعلم قطعاً أنّ نسبةَ التقصيرِ إلى أيِّ إنسانٍ كانَ بحضورِ النَّاسِ قبيحٌ مُضِرٌّ، فلو أردتَّ معرفةَ صِحَّةِ قولي: آذْهَبْ لزيارةِ أحدِ المشايخِ الذي تعتقدُهُ حليماً وتابعاً للشريعة ومحبّاً للعلماءِ، فإذا صَدَرَ منه خلافُ السُّنَّةِ وقلتَ له بحضورِ المريدين: هذا العملُ قبيحٌ، أو تكلَّمتَ مع مريديهِ بأنَّ هذا العملَ الصادرَ عن الشيخ ــ والمخالفَ للشريعةِ ــ عملٌ قبيحٌ؛ فسترى أنهم يذمُّونك وقد يتَّهِمُونَك بالكفرِ والإنكار، ويضيّعون لك خِدْمَتَك السابقة للشيخِ، ولو لم يقلْهُ الشيخُ، لكنّك ستكونُ مُبْغَضاً في نظرِ أتباعه!.

فَعُلِمَ أنّ الأمْرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عن المنكرِ لا يكونُ مُسْتَفَاداً منه إلاّ بالطريقِ الأحسنِ والملاطفةِ ونسبةِ القبائح صَرَاحَةً إلى النَّفْسِ لِيُسْتَفَادَ بطريقِ التعريضِ والكنايةِ قبحُ أعمالِ السامعينَ والمخاطَبين.

ونحنُ العلماءَ لنا محبةٌ للدنيا؛ فلهذا لو أنعم الشيخُ على أحدنا ندعو الناسَ للاجتماعِ حولَه ولو لم نعتقدْهُ شيخاً، وهذا أيضاً قبيحٌ، فصدق المثلُ القائلُ «لا تكنْ مالحاً كالمِلْح ولا بدونِهِ كالخِيَار».

ونتمنَّى أيضاً من العلماءِ والمُرْشِدِين أنْ يضعُوا أيديَهم بأيدي بعضٍ، ويتركوا الغِيبةَ وذمَّ الآخرين، فلو أخطأ أحدُكم مع الآخَرِ فليعتذر المخطيءُ عن خطئِهِ وليقابلِ الآخرُ السيئةَ بالحسنةِ؛ فيجزيَهُ الجزاءَ الأوفى، فيصيرَ بذلك المسيءُ خَجِلاً، فيكونَ ذلك سبباً لزوالِ العداوةِ وبقاءِ المحبَّةِ والصداقةِ، كما قال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤] وقال عز وجل: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٥] أي: قابلِ السيِّئةَ بالحسنةِ، يكِنْ ذلك سبباً للمحبة بينَكَ وبيْنَ الذي كان عدواً لك، ولا تَحْصُل هذه الخَصْلَةُ العظيمةُ إلا لمن صَبَر، ولا يحصُل هذاالصبرُ إلا لمن كان له سهمٌ عظيمٌ في الدِّيَانَةِ وحسنِ الخُلُقِ.

فإنْ كنتَ لا تستطيعُ أن تصيرَ مشمولاً بهذه النِّعْمَةِ العظيمةِ وممدوحاً بها من ربِّ العزَّةِ، فلا تُسِيءْ إلى المُسيء فإنَّ ذلك إماتةٌ له كما قيل: أحسنْ إلى من أساءَ؛ فإن المُسِيءَ تكفيهِ إساءَتُهُ.

قال بكر بن عبد الله: كان رجل يغشى بعض الملوك، فيقوم بحذاء الملك، فيقول: أَحسِن إلى المحسن بإحسانه، فإنّ المسيء سيكفيكه إساءته، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام، فسعىٰ به إلى الملك، فقال: إن هذا الذي يقوم بحذائك، ويقول ما يقول، زعم أن الملك أبخرُ، فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ قال: تدعوه إليك، فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البَخَر[1]، فقال له: أنصرف حتى أنظر. فخرج من عند الملك، فدعا الرجلَ إلى منزله، فأطعمه طعاماً فيه ثوم، فخرج الرجل من

(١) البَخَر: النتن من الفم، فالذكر أَبْخَر والأنثى بَخْرَاء.

عنده، وقام بحذاء الملك على عادته، فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيءِ سيكفيكه إساءته، قال له الملك: ٱدنُ مني، فدنا منه فوضع يده على فيه مخافة أن يَشَمّ الملك منه رائحة الثوم، فقال الملك في نفسه: ما أرى فلاناً إلا قد صدق! قال: وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صِلَة، فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عُمّالِه: إذا أتاك حامل كتابي هذا فٱذبحْه وٱسلخْه، وٱحشِ جِلْده تِبْناً وٱبعثْ به إليّ فأخذ الكتاب وخرج، فلقيه الرجل الذي سعىٰ به، فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: خَطُّ الملك لي بِصِلة، فقال: هبْهُ لي! فقال: هو لك، فأخذه ومضى به إلى العامل، فقال العامل: في كتابك أن أَذْبحَك وأسلخك، قال: إن الكتاب ليس هو لي، فالله في أَمري حتى تراجعَ الملكَ، فقال: ليس لِكَتاب الملك مراجعةٌ، فذبحَه وسلخَه وحَشا جِلْده تبناً وبعَث به. ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مِثْلَ قولِه؛ فعجب الملكُ، وقال: ما فعل الكتاب؟! فقال: لقِيَني فلان فٱستَوْهبَه مني فوهبتُه له، قال له الملك: إنه ذكر لي أنك تزعم أني أَبْخَر؟ قال: ما قلت ذلك! قال: فلِمَ وضعتَ يدَك على فِيْك؟ قال: لأنه أطعمني طعاماً فيه ثُوْم فكرهت أن تَشَمّه. قال: صدقت، ٱرجِع إلى مكانك، فقد كفى المسيء إساءته.

وأنا بنفسي أُقاسي الشدائدَ من بعضِ الناسِ؛ ولكنني أواجِهُ أَعمالَهُمْ بنهايةِ الصَّبْرِ والقَبُولِ، فإذا كان قصدي في ذلك ٱمْتِثَالَ أمرِ اللَّهِ تعالى، وخدمةَ عبادِهِ، والعفوَ عن جنايةِ عبيدِهِ من حيث إنهم عبيدُهُ: أكونُ مأجوراً.

فيجبُ على كلِّ واحدٍ منّا ــ إذا كان قصدُهُ عبادَةَ اللَّهِ ورضاه وخدمةَ عبيدِهِ ــ أنْ يَفعلَ ما ذكرنا، وإذا كان مرادُنا تثبيتَ الدِّين وٱستحكامَه: فإننا لن نصل إليه بالخشونةِ والغُرورِ والتعصُّبِ.

وٱعلم يا أخي: أنّ النَّفسَ الأَمَّارَة التي شيمتُهَا وطبيعتُهَا تخريبُ الدِّينِ وإيقاظُ الفِتْنَةِ بين المسلمينَ، تُلْقِي إلى مخيّلتِك الآياتِ والأَحاديثَ الشديدةَ الواردةَ في الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المُنْكرِ، وتقرؤُهَا عليكَ وتقولُ لك:

يجبُ عليك الأمرُ بالمعروفِ والاشتغالُ به، سواءٌ أكان ذلك مفيداً أم لا، وسواءٌ أكان ذلك سبباً لفوتِ رُوحِكَ وقطعِ رأسكِ أم لا!!.

فنقولُ للنَّفسِ الأَمَّارَةِ: لو كانَ فنائي سبباً لتنبُّهِ النَّاسِ وقَبُولِهِم الدِّيْنَ وترويجِ الشريعةِ فَأَقبلُه بكلِّ محبةٍ وطِيْبِ خاطرٍ، وأشتغلُ به بجميعِ ذرَّاتِ وجودِي، لكنْ جُرِّبَ مِرَاراً هذا النوعُ من التبليغِ ـ ومع أنه لم يُفِدْ ذَرَّةً ـ فقد كان سبباً للفسادِ والتباغُضِ والتنافُرِ بين المسلمينَ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والآياتُ والأَحاديثُ المارَّةُ كلُّهَا مخالفةٌ لدُسْتُورِك.

وقد تقولُ النَّفسُ أيضاً: كلُّ هذا التقصيرِ سببُهُ تركُ الأَمْرِ بِعُهْدَةِ هذا العالِمِ؛ فهو لا يوافقُنَا ولو كان موافقاً لنا لكنَّا كلُّنا يداً واحدةً على المخالفين.

فنقوْلُ في جواب ذلك: إنْ آتفاقَ العلماءِ مُحَالٌ عادةً، لأن بعضاً منهم ـ لتحصيلِ الجَاهِ والثَّرْوَة ـ يأخذُ جانبَ المخالفين، ويكونُ عوناً لهم ويقوِّي جانبَهم بتأويلِهِ الآيات والأحاديثَ بطريقةٍ تسوِّغ أفعالهم فيضعفُ جانبُ العلماءِ. ولو فُرِضَ آتفاقُهم لكنْ لكونِ وسيلةِ معيشةِ العالِم في مَنْطِقَتِنَا في أيديهم ومن جانبهم فيضعفُ من هذه الحيثيةِ أيضاً جانبُهم. ولو فُرِضَ أنَّ كلَّ واحدٍ من العلماءِ يحصِّلُ معاشَهُ بنفسِهِ وأنَّ الحكومَةَ تهيؤه له، لكنْ بعضُ المتنفِّذين العاشقين لإفسادِ الدِّين يكونون مُعِينينَ ومقوِّين لهم فيضيعُ الأمر كلُّه وينهدمُ الأَساس تماماً.

والحاصل: أن مفاسدَ الخُشُونَةِ ومنافعَ الملاينة واللِّيْنِ ليست مكانَ نزاع، وجميعُ الكتبِ الفقهيةِ ناطقةٌ بأنَّ الأَمْرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكرِ لو كان باعثاً لنقصِ نفقةٍ أو قِلَّةِ وسائلِ التدريسِ: فهو مكروهٌ، وفي بعضِ الأَوقاتِ حرامٌ. ومراجعةُ كِتَابَي «الإحياء» و «كيمياء السعادة» موجبةٌ للتصديقِ بما قلنا.

هذا آخر ما أردنا جمعه، والله أعلم بالسرائر.

* * * * *

ترجم الكتاب من الفارسية إلى العربية المُلاّ محمد بُدَاقي، أحد تلامذة المؤلف رحمه الله تعالى.

* * *

قال خالد رفعت الفقيه ـ عفا الله عنه ـ : وكان الفراغ من التشرف بخدمة هذا الكتاب المستطاب، ضحوة يوم الأحد الواقع في ٢٠ من ذي الحجة ١٤١٧هـ= ٢٧ من نيسان ١٩٩٧م؛ راجياً المولى جلّ وعزّ أن ينفع به كلَّ من قرأه، ومن ساهم في إخراج هذا الكتاب بهذه الحُلَّة القشيبة.

فهرس الموضوعات